رحلات

الطريق 60

خلفان الزيدي

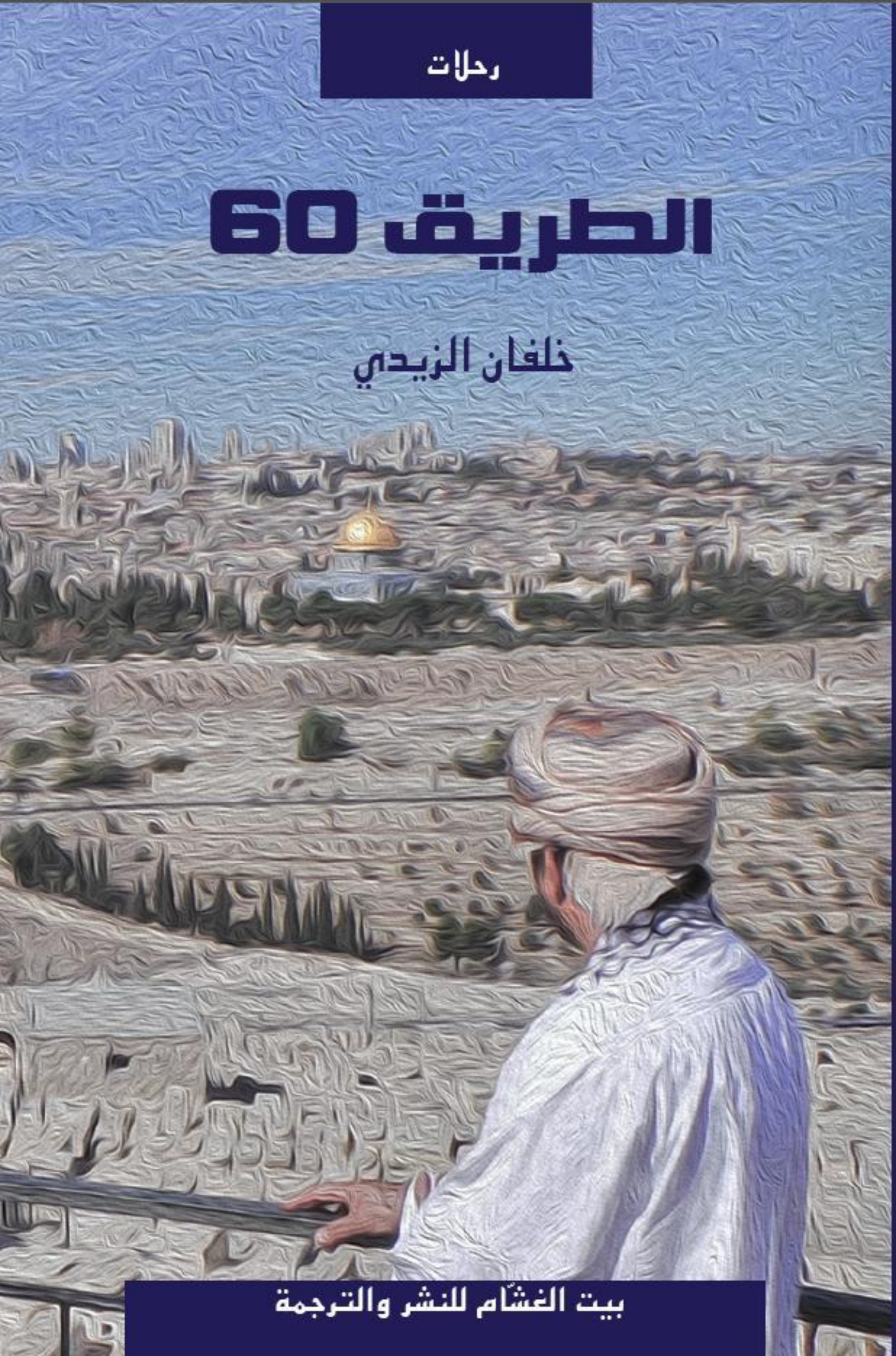

بيت الغشّام للنشر والترجمة

الطريق 60

خلفان الزيدي

الطريق 60

المؤلف:
خلفان الزيدي

الطبعة الأولى: 2015 (مسقط)

الناشر:

بيت الغشام للنشر والترجمة

مؤسسة التكوين للخدمات التعليمية والتطوير

(سلطنة عُمان – مسقط)

للتواصل:
alghshamoman@gmail.com
هاتف: 24398889 - 99260386
ص.ب: 745 الرمز البريدي: 320
www.altakween.com

التصميم الداخلي والغلاف : سارة بنت سعيد العلوي

لوحة الغلاف: هلال البادي

حقوق النشر محفوظة ولا يحق
إعادة الطباعة أو النسخ
إلا بإذن كتابي من المؤسسة

رقم الإيداع 25/ 2014
رقم الإيداع الدولي(ISBN):
978-99969-59-70-7

إلى أمي ..

أم كل أسير وشهيد!

خديجة! لا تغلقي الباب

لا تدخلي في الغياب

سنطردهم من إناء الزهور وحبل الغسيل

سنطردهم عن حجارة هذا الطريق الطويل

سنطردهم من هواء الجليل.

محمود درويش

كانت تسمى فلسطين..

صارت تسمى فلسطين

في 21 أكتوبر 2013م، وعند الساعة 7.25 دقيقة مساء بتوقيت القدس دخلنا إلى أرض فلسطين.

قبل هذا التاريخ، كانت حكاية فلسطين مجرد حلم يراوح مكانه، مثل أحلام كُثر تلاشت في الزمن، حتى عند اللحظة الفاصلة التي وقفنا فيها على جسر الملك حسين، نشاهد أضواء الأراضي الفلسطينية المنيرة، لم نكن على يقين أن دخولنا سيكون متاحا، وأن أبصارنا ستعانق أرض البرتقال والزيتون.

كان الصمت سائدا في الحافلة وهي تنطلق من مطار عمّان باتجاه مدينة الشونة الجنوبية في منطقة الأغوار، وأيادينا على قلوبنا خوفا من أن نعود من حيث أتينا، فالاحتلال المسيطر على الحدود ليس له عهد ولا ذمة، ولن يلتفت الجنود المدججون بالسلاح والكراهية لكمّ التصاريح والموافقات التي نحملها، كما أنهم لن يأبهوا بمرافقة مسئول فلسطيني لنا، منذ خروجنا من مسقط وحتى وصولنا إلى هناك.

حين شاهدنا المحتل أول مرة، ورأيناه رأي العين، تزلزلت أوصالنا، واقشعرت أبداننا، وفار الدم في عروقنا، لكننا مع ذلك - وطبقا للنصيحة- لم ننبس ببنت شفة، وكتمنا مشاعرنا الغاضبة، ومضينا ننهي إجراءات الدخول

حسب المطلوب، دون أي مقاومة أو احتجاج على ممارسات الاحتلال وشعاراته المستفزة في المعبر.

وعندما رأيت ختم الدخول ينزل على الورقة الموضوعة داخل جواز سفري، وسمعت أمن الحدود يشيرون لي بالعبور، شعرت أني ولدت من جديد، وأن الحلم الذي عشت لأجله أصبح في يدي، وها أنا ذا في فلسطين..

***

لماذا تسافر إلى فلسطين وهي تحت الاحتلال؟

لماذا توافق على التعامل مع سلطات الاحتلال؟

لماذا «تُطَبِّع» مع من يحتل أرضنا، ويسجن شعبنا، ويسومهم سوء العذاب؟

تساؤلات كثيرة حاصرتني وأنا أهم بالسفر إلى فلسطين، وتحقيق حلم الوصول إلى الأرض التي بارك الله حولها، احترت حينها في الإجابة، وكيف أرد على هذه الاتهامات، وأبرر زيارتي إليها، أنا الذي انتظرت هذه اللحظة التاريخية كل سنين عمري، وبذلت كل ما بوسعي لأجل أن تكون، لم أقل شيئا حينها، كل ما قمت به أني تجاهلت الأسئلة، ومضيت في طريقي، مؤجلا الإجابة لزمن قريب.

حين الزيارة، وأنا أمضي في مدن فلسطين ومناطقها، وأنقل مع رفاق الرحلة ما يدور داخل الأراضي المحتلة، وكيف هو صمود الشعب وكفاحه في مقاومة الاحتلال.. وحين نقلنا معاناة شعب في سجون الاحتلال، تبدلت الحالة من غضب إلى ترحيب، ومن رفض إلى تأييد.

كان ردُنا على اتهامات التطبيع واثقًا ومدعومًا بشواهد عايشناها إبان زيارتنا إلى الأراضي المحتلة.. حد أن الأسئلة بعدها تبدلت إلى: كيف نزور فلسطين؟، وما هي الإجراءات المطلوبة لإتمام هكذا زيارة؟.

***

أكتب عن فلسطين هذه المرة..

أنا الذي ارتحلت إليها على حين غفلة من زمن الانكسار والهزيمة.. وحملت وجع السنين، ومضيت في درب لا أعرف إن كان سيصل بي إلى الأرض المباركة، أم سينكسر الحلم كما انكسرت أحلام عديدة في خلاص هذه الأرض من الاحتلال، وبزوغ شمس الحرية عليها.

أكتب عن فلسطين والألم يعتصرني.. دون أن أعرف لهذا الألم نهاية أو خلاصا.

لم نزر إلا القليل من الأراضي المحتلة، وبقي أكثرها محرماً زيارته علينا، بين أراضٍ ما زالت ترزح تحت الاحتلال، وأراضٍ حولها الاحتلال إلى مستعمرات لقطعانه، وأخرى أصبحت سجونا مطوقة بقبضة حديدية تسيطر على المعابر والحدود إليها، وبين هنا وهناك جرائم ترتكب ضد الإنسانية يشيب لها الولدان.. سد العالم عنها أسماعه، وغض بصره، وما زالت صرخة أم ثكلى ترن على مسامعي، تسأل عن الضمير النائم فينا، هذا الذي لم يهتز ولم يرف له جفن لهول ما يحدث من جرائم وإبادة بحق شعب اغتصبت أرضه، وانتهكت حرماته ومقدساته، وسفكت دماؤه، وشرد في المخيمات والشتات.

وكما الصمت من حولنا.. كان صمتنا حينها، لم نملك غير كلمات يسيرة نشد بها عضد الذين يعيشون الاحتلال ليل نهار..

غير أن زيارتنا وحدها كان لها وقع شديد على كل من التقينا بهم، رأيت الفرح في عيونهم وهم يشاهدون إخوانهم يأتون لمساندتهم، ويفتحون نافذة للأمل، يبثون فيهم العزيمة والصمود، ويشدون من أزرهم، شعرنا بالفخر منهم ومن أنفسنا.. وتمنيت لو أن زمن الزيارة يطول، أو أن وصولنا إلى أراضٍ فلسطينية أخرى ممكن وجائز.

***

ما الذي يمكن الكتابة عنه في رحلة كهذه؟

هل أكتب عن الحلم.. أم عن الألم.. أم عن الأمل الذي رأيته ينبت في كل أرض وطئتها أقدامنا.. وعن أي حكاية أسرد في هذه الصفحات الوجيزة، وذاكرتي تتقاذف المشاهد، وتتزاحم فيها المواقف والحكايات، أنا الذي احترت في بداية الحكاية وفي نهايتها، واحترت أكثر ما بين البداية والنهاية.

إنها فلسطين... وليست أي بلاد أخرى تزورها متى شئت، وتمكث فيها ما شئت، وتعود إليها لتستكمل الحكاية متى شئت.

فلسطين التي نسيناها في خضم الأحداث المرتبكة حولنا، وفي خضم البحث عن ذواتنا، وفي دائرة الصراع والتناحر بيننا، فلسطين التي توارت أمام رصاص المدافع، وأزيز البنادق ولم تعد القضية الأولى، فقد تقدمتها قضايا أخرى، وبات السلام على أنفسنا مقدما على السلام في فلسطين.. فيما الاحتلال ينعم بجرائمه وانتهاكاته بحق الأرض والإنسان، دون أن يخشى غضبة عربية إسلامية، أو ردة فعل رادعة.

فلسطين التي تزف أبناءها كل حين، وتروي بدمائهم أشجار التين والزيتون والرمان والبرتقال، دون أن تستكين أو تستسلم لإرادة الاحتلال، وتخضع له.. هذه البلاد العصية على الانكسار وعلى الانهزام ترفع رأسنا في كل يوم، وتتحدى العدو في أوج قوته، وقمة أمنه، وهي تسجل أروع الملاحم البطولية في سفر النضال المتواصل.

هذه الأرض التي كلما سد العدو طريقا، فتحت لنفسها طريقا آخر.. وكلما اقتلع العدو شجرة زيتون زرعت بدلا عنها عشرين شجرة، وكلما أزهقت روح وُلِد عوضا عنها من الأرواح العديد.. هذه الأرض «الولادة» التي تنجب أبطالا يخرسون التاريخ من شدة بطولاتهم، قصة ضاربة الجذور، مهما تناست وتوارت خلف قضايا هامشية، تعود شامخةً بشموخ أبطالها.. وكل المدافعين عنها.. تسمق في عنان السماء لتطاول كل سامق وشاهق.

***

أكتب عن فلسطين.. وتتراءى لي مزارع الزيتون التي جرفها الاحتلال، والهضاب التي أقام عليها مستعمراته، وأمضي في دروبها، وأنا أصطدم بالحواجز والموانع التي تعيق الانتقال من منطقة إلى أخرى.. وعلى مرأى من كل ذلك يبدو جدار الفصل العنصري، الذي يتلوى ويتمدد كالثعبان حول فريسته ليجهز عليها..

أكتب عن فلسطين.. وصور البطولات تتناسل في كل الأرض من الطفل الرضيع إلى الكهل العجوز، والمرأة الصامدة، والشاب المقدام، جيل يرضع البطولة عن جيل، والدماء ترخص والأرواح من أجل أن تكون فلسطين حرة أبية..

أكتب وصوت محمود درويش يتردد بين الحروف.. «على هذه الأرض ما يستحق الحياة»..

نعم على هذه الأرض ما يستحق النضال.. ما يستحق الكفاح.. ما يستحق الحياة.

***

من رام الله إلى القدس مرورا بالخليل وبيت لحم ونابلس وأريحا.. كانت رحلة الأيام العشرة التي قضيناها في ربوع فلسطين.. كانت حافلة بالذكريات والحكايا، وحده الطريق (60) كان شاهدا على مرورنا الدائم كلما غادرنا رام الله إلى مدينة أخرى.

من أريحا أطللنا على رام الله، وذهبنا إلى الخليل وهناك دخلنا الحرم الإبراهيمي رغم الطوق الأمني الضارب حوله، وتجولنا في أسواق الخليل، وروى طفل لم يبلغ العاشرة من العمر مأساة عائلته بين سجين وشهيد، وانتقلنا إلى بيت لحم حيث كنيسة المهد ومسجد عمر بن الخطاب، وحين خروجنا من المدينة كان قطعان المستعمرين يقطعون الطريق ويضرمون النار في المركبات، على مرأى جنود الاحتلال، وفي أبوديس أطلقت الآلة العسكرية الإسرائيلية مدفعيتها بمحاذاتنا.. وفي القدس حققنا حلم الحياة بالصلاة في الأقصى، ورأينا بعدها كيف يهان الفلسطيني في أرضه وبين مقدساته.. وفي نابلس كانت المستعمرات تطوق المدينة من كل صوب وحدب..

صور ومشاهد عديدة تزاحمت أمامي.. وثقت ما تيسر منها في سطور هذا الكتاب مستعينا بين سطوره بكلمات محمود درويش وقليلا من كلمات

سميح القاسم وفدوى طوقان، متأملا أن يكون هذا الإصدار إضافة لما سبقه من حكايات سفر ضمها «خطاوي الطير» ومن قبله «نحيب النهر».. دون أن أغفل تقديم الشكر والعرفان لكل من ساهم في إتمام الرحلة إلى فلسطين، وكل من شجعني في إخراج هذا الإصدار، وكل من أسدى لي نصحا، وساهم في مراجعة الكتاب لغويا وفنيا، حتى يكون «الطريق 06» سالكا.

***

تضيق بنا الأرض أو لا تضيقُ.

سنقطع هذا الطريق الطويل

إلى آخر القوس.

فلتتوتر خطانا سهامًا.

«محمود درويش»

خلفان الزيدي

27ديسمبر2014 م

أحلام قُدَّت من حنين

متأملا الصورة الماثلة أمامي، أرجع البصر كرتين، فينقلب إليّ البصر خاسئا وهو حسير، أزرع حلما صغيرا، فينبت الحلم حقيقة تمشي على الأرض، وتجول في بيارات البرتقال، وتعانق الزيتونة المباركة، وتضيء منارات المساجد، وتقرع أجراس الكنائس، ثم ترتمي حجرًا في راحة طفل، وتكمل حكاية الصمود.

أرسل عيني جهة المقبرة العربية التي تحولت إلى يهودية، بعد خيانة تعود إلى أربعة قرون، أطرق أبوب القدس السبعة، محاولا الولوج إلى الحرم الشريف، حتى لو أغلقت الأبواب دوني، ونصبت حواجز التفتيش، أستعيد ذاكرة مهترئة بالخيانات كما هي مليئة ببطولات الجيش العربي، مذ قتاله الأول ضد الانتداب البريطاني، وحتى مقاومته للزحف اليهودي على أسوار المدينة.

أقف على جبل الزيتون، ميمما وجهي شطر البلدة القديمة، وأمضي في الأزقة، قاصدا الحي الإسلامي دون باقي أحياء البلدة الثلاثة، أتجول في سوق القطانين، ثم انعطف في طريق الآلام، خارجا من باب الأسباط إلى المسجد العمري وكنيسة القيامة.

أصطدم بكمّ الخرافات التي نسجها «المحتلون»، ومحاولات طمس الهوية، وتغيير ملامح الحي والبلدة القديمة، أنحني إجلالا لامرأة رابطت في

منزلها رغم تصدع جدرانه، حفاظا عليه من سرقته، كما سرقوا الحي والبلدة، وسرقوا المدينة، والوطن.

أيّها العابرون على جسدي

لن تمرّوا

أنا الأرض في جسد

لن تمرّوا

أنا الأرض في صحوها

لن تمرّوا.

***

أناظر من البعيد الأقصى الشريف، وأتأمل بفرح القبة التي برقت كما الحلم الذي تجسد أمامي، أتخيل عودة هذه الأرض، وتحريرها، والأرواح التي سكبت دماءها هنا، نبتت جيلا، أعاد للقدس جلالها، وللمدينة القديمة بهاءها.

أشاهد مجموعة من الحاخامات يجولون في منطقة المقابر اليهودية، يقف حاخامان عند أحد الأضرحة، يتلوان صلاتهما، ثم يشبك كل منهما يديه وينحني، قبل أن يغادرا آمنين مطمئنين، وقريباً مني يقف مجموعة من الأجانب يقودهم مرشد يهودي، يحكي لهم عن تاريخ المدينة، وعن مقدساتهم، وآثارهم المزعومة، ويشير إلى جبل الزيتون، يخبرهم عن المسيح المنتظر الذي سيخرج من هناك، وعن الأموات الذين سينهضون لاستقباله،

ويدخلون معه من باب الرحمة لإقامة الهيكل الثالث.

أصرف بصري عن هؤلاء، وأعود للبلدة القديمة، حيث تجري طفلة بين حوانيت سوق باب خان الزيت دون أن تأبه لبنادق جنود الاحتلال المتأهبة للغدر، ترتمي في حضني، وأرفعها عاليا، تطلب مني أن أمضي بها وهي محمولة بين أذرعي، أفرح لطلبها، أخرج بها من باب العمود، وأصعد السلم الواصل حتى الشارع، وأمضي لا آبه لشيء.. تفتح دالية ذراعيها للريح، وتحلق، لكنها ترفض الطيران بعيدا عن القدس.

رجل سبعيني عند مدخل سوق القطانين يطلق ابتسامة ترحيب، يحلف أن يضيفنا بعصير الرمان الطازج، أنظر إلى الفرح في عينيه، لكنني أبصر خلف فرحه مأساة عقود من الألم والضياع والتشرد، لا يقول أبو رؤوف الكثير عن حياته، لكنه ينظر إلى الزقاق الواصل إلى كنيسة القيامة، ويتركه ليقول كل شيء.

صور تترى، وأنا الواقف هناك أنظر للحلم المتجسد الممتد جهة أولى القبلتين وثالث الحرمين، والأمنية التي غدت على مرمى حجر من تحقيقها، يسأل الصديق عاصم الشيدي ونحن نقترب من ولوج باب الساهرة عن فيروز و»زهرة المدائن»، لكن جراح المدينة أكبر من أن تجيب على سؤاله، فيترنم بها وحيدا، وهو يتشرب بعضا من الوجع الساكن هنا..

أحدهم يعرض صورة بانورامية للقدس، أسأله عن الثمن، فيخبرني إنها بعشرة شيكل، وأعود لسؤاله عن ثمنها بغير هذه العملة، أدفع له دينارين أردنيين، أتبين بعدها أن الصورة مكتوبة بالعبرية، أطويها، وأتأمل الصورة الحقيقية، والألم يكبر ويكبر..

***

كم علينا أن ننتظر حتى ندخل القدس دخول الآمنين؟!..

أحلامنا التي قُدَّت من حنين، تنمو حينا وتخفت أحايين كثيرة..

كلما طرقنا بابها، وجدناها مجرد حلم، يتبخر مع العجز العربي، والصمت المطبق في إنقاذ شعب يرزح تحت وطأة التشريد والتنكيل، دون أن نلتفت لصرخاته وآلامه.. حتى أخباره لم نعد نستسيغ سماعها، وكأننا قد تعبنا من سماع أنينه وشكواه.

هكذا فجأة، استيقظت لأجد نفسي أمشي في شوارع رام الله، وأجوب الخليل ونابلس وبيت لحم.. وفي صور أخرى أقف عند قبة الصخرة، وأصلي في بيت المقدس، وهنا في صورة ثالثة عند منبر صلاح الدين الأيوبي داخل الحرم الإبراهيمي، وأقطف الزيتون، وأعيش حصار أبوديس، وطلقات الرصاص، وتهجير شعب من وطنه، واستفزاز المستعمرين، وقطع الطريق، وأقف عند الحواجز، بغية الوصول إلى الجهة الأخرى من المدينة.

كل هذا الوجع، لا يساوي شيئا، أمام فرحة أم بخروج ابنها الأسير بعد ثلاثين عاما من الإذلال في زنازين الاحتلال، أمام رقصة فرح تشعر فيها أنك إنسان آخر، غير الذي تعرفه.. أطلق ساقي للريح، أحاول أن أهرب من واقعي، فاصطدم بمرارته في غدي الآتي.. فالأم التي فرحت بعودة ابنها الأسير، اكتشفت أنها وقريتها، تعيشان في الأسر، وتقبع في سجن بداخله سجن أكبر.

لكن هذا الشعب عصي على الانهزام... لم يهزه الاحتلال والقتل والتهجير والذل، هو يزداد رسوخا وثباتا في أرضه، كلما زاد الاحتلال قهره وذله، يضحك

أشيب فلسطيني رغم ما تحمل سنينه من قهر وألم، ويمضي يزرع شجرة زيتون قريبا من الشجرة التي اقتلعتها جنازير الاحتلال.

تبوح الرحى بأسرارها للمرأة التي قامت تطحن القمح، وتخبزه، للذي حنّ إلى خبز أمه.. ثم تنتظر ابنها.. ابنها الذي عادَ مستشهدًا. فبكت دمعتين ووردة ولم تنزِو في ثياب الحداد.

والطفل الذي فتح عينيه في سجون الاحتلال وعاد إليه مرات عدة، وهو لم يكمل الخامسة عشرة من العمر، هذا الطفل الذي فقد والديه، وتشردت أسرته، لم يغادر الخليل، وبقي يحرس الحرم الإبراهيمي بقلبه ووجدانه، قال لي: أنا جذوري نبتت هنا، ولن أغادرها إلا إلى هناك، وأشار جهة المدافن.. ومضى مرفوع الرأس، وسط بنادق الاحتلال.

منتصبَ القامةِ أمشي

مرفوع الهامة أمشي

في كفي قصفة زيتونٍ

وعلى كتفي نعشي

وأنا أمشي وأنا أمشي..

***

يسألني المكان: من باع فلسطين، وخان القدس، وغدر بهذا الشعب؟

فلا أجد إجابة شافية، أمام السجن الذي يكبر، السجن الذي طوقه الاحتلال بحواجزه وجداره العنصري، وحرّم على أهله كل شيء إلا بأمره, ولو

استطاع حرمانهم من الهواء الذي يتنفسونه لفعل.

كل ذلك يحدث على مسمع العالم ومرآه، ما الذي تبقى من فلسطين؟

فيتردد صدى الجواب في كل الأرض، هذه الروح المكافحة، وهذه الإرادة التي لا تستكين، وهذه العزيمة التي لا تقهر، سنموت أجسادا، لكن أرواحنا تتناسل في المكان، ولن يستطيعوا هزيمتنا.

أسمع بعض حكايات نضال الشعب وصموده، من السفير الفلسطيني في مسقط، أقرأ في كلماته كمّ الألم الذي يتنفسه هذا الشعب، وكل يوم يزداد الاحتلال ضراوة، حكايات كثيرة تتناسل، تخبرنا عن عنصرية الكيان القائم على اغتصاب الأرض وتشريد أهلها، والجدار العنصري البغيض الذي يشطر منازل الأهالي، ويفرق أملاكهم، ويفصل بعضهم عن بعض.

«يمضي جدار الفصل العنصري دون هوادة، عازلًا حينا ومحاصرًا حينا آخر، ملتهمًا آلاف الدونمات، ومفسحًا المجال لسياسات وعمليات تهويدية جديدة، على رأسها ضم الكتل الاستيطانية الموجودة على أراضي الضفة الغربية لإسرائيل».

أخبرنا السفير الفلسطيني حكاية المواطن الذي فصلوا مزرعته، عن منزله، وبات عليه أن يسلك طريقا شاقة وطويلة، تنتشر فيها الحواجز الإسرائيلية، حتى يصل إلى المزرعة، ويعتني بها لسويعات قليلة، قبل أن ينتهي تصريح زيارته، ويقفل راجعا بذات المشقة التي جاء بها.

أخبرنا كذلك عن الأسير الذي يقبع في السجن منذ أكثر من ثلاثة عقود، وتم منع الزيارة عنه، حتى ماتت أمه من كمد الشوق إليه، وقضى والده قبلها

حسرة على فراقه، وعن العذاب النفسي، الذي يعيشه في زنزانته.

وحدثني شاب فلسطيني عن مقتل جميع أفراد عائلته في غارة عدوانية، وعن هدم منزلهم، ودخوله السجن وتشرده بعد ذلك، ومع ذلك كان شامخا، عصيا على الاستسلام، ضاربا جذوره في الأرض، متمسكا بها، واهبا حياته لأجلها..

***

من الصعب أن تكتب عن فلسطين، كما تكتب عن بلاد أخرى.. وتروي حكايتها، وكأنها حكاية مدينة عابرة، فهنا تكتب عن الحلم، والأمل، والنضال، الحلم الذي ساقك للوقوف في هذه اللحظة التاريخية من عمرك، وتتأمل الصورة الماثلة أمامك، وتستعيد مشاهد عديدة، من كفاح هذا الشعب واستبساله للدفاع عن أرضه وحريته.

تكتب عن فلسطين، فتستنطق حكاية كل حجر حط في راحة طفل فلسطيني، وانطلق متحديا الرصاص والقذائف، وكل قطرة دم شهيد أو دمعة أسير، سقت تراب الأرض، وكل شجرة زيتون نبتت هنا، على أنقاض شجرة قتلتها جرافات الاحتلال.

أكتب عن فلسطين وقد جئتها محملا بوجع السنين التي سقطت فيها من ذاكرتي.. أنا الذي حسبت ذات مرة أن زيارتها حلم يسكنه حلم عصي المنال.. دون أن أعرف من أين أبدأ الحكاية، وكيف أطوع حروفي لتنبض بكل هذا الألم الذي يسكنني.

الألم ذاته الذي انفجر في أوردتي وأنا أحكي عن نيتي زيارة الأراضي الفلسطينية المحتلة، ضمن فريق من الصحفيين العمانيين، حينها توالت عبارات التقريع والاستهجان، ممن وجد أن زيارتنا هذه تندرج في إطار «التطبيع»، والموافقة على التعامل مع سلطات الاحتلال لأخذ إذن الزيارة..

توالت الأسئلة حينها، عن أسباب ودواعي الزيارة، ولماذا رام الله والضفة الغربية، وليست غزة، ولماذا نرتضي دخول الأقصى بموافقة إسرائيلية، وما الداعي لزيارة الأراضي الفلسطينية وهي ما زالت ترزح تحت الاحتلال؟!.

كانوا يريدوننا أن نترك هذا الشعب ليموت، دون أن نعرف عنه شيئا، أو نؤازره، ونشد من عضده، كانوا يريدون للمقولة الإسرائيلية أن تصدق قولها للفلسطينيين، «أنكم وحدكم هنا، ولا أحد يهتم بكم»، كيف لي أن أشاطر أم الأسير، وهي تتخضب بالدمع، حزنا أن تموت دون أن ترى وحيدها، أو أقف قريبا من كهل فقد عائلته في قصف عدواني، وما عرف للحياة بعدها طعما، أو أبتسم للطفلة التي قفزت في حضني، وأنا خارج من باب العمود.

***

كل الأرض الفلسطينية عندي واحدة، ولا فرق بين زيارة غزة أو الضفة أو الخليل أو دخول القدس، ففي كل منها تضحيات لجيل ما عرف الخنوع، واستبسل في الدفاع عن أرضه وكرامته، لم يزده التهجير والتشريد والقتل والإذلال غير الرسوخ والثبات على مواقفه.. فهل علينا أن ندير ظهورنا لهؤلاء الأبطال، ونقاطعهم بحجة أنهم واقعون تحت الاحتلال؟.. ومتى كانت زيارة السجين تطبيع مع السجان؟.

ولأنني لا أريد الخوض كثيرا في معنى «التطبيع» ودلالته، فأقول، نعم لقد طبعنا مع الأم الفلسطينية التي انتظرت ابنها الأسير، كما طبعنا مع أطفال فلسطين وأبطالها، وقبلنا كل ذرة تراب وصلنا إليها، وسنعود ذات يوم لنقبل باقي الأرض المحررة..

وبعيدا عن الجدل، والاختلاف مع الزيارة أو الاتفاق معها، فقد كانت زيارة فلسطين أمنية أغبط نفسي على تحقيقها، وأجدني محظوظا، بكل لحظة قضيتها هناك، وبكل مشهدية كنت جزءا منها، وكل صورة كنت ضمن إطارها.. أنا الذي وددت لو طالت أيام بقائنا هناك، أو توقف الزمن حين وقفت على ربوة حديقة البروة، حيث يرقد شاعر فلسطين الكبير محمود درويش، وحيث يرفرف العلم الفلسطيني في الأعالي يعبّر عن حرية وطن وإرادة شعب قدم الكثير من التضحية والمعاناة والصبر..

عبرنا من أريحا إلى رام الله، وذهبنا إلى أبوديس والخليل والحرم الإبراهيمي، ونابلس وجبل جرزيم وبيت لحم، ودخلنا القدس، وفي كل مكان كانت لنا حكاية، أو بمعنى آخر كان للأرض بوح من الحكايا.. وجدتها في الأم الفلسطينية المناضلة، أم الأسرى والشهداء، وفي الطفلة المقدسية ذات السبعة أعوام، وفي روح الشباب الفلسطينيين الذين رافقونا، ووجدتها في الضحكة التي أطلقها المزارع وهو يقاسمنا الفرح، حين مشاركتنا إياه قطف الزيتون، ورأيتها في كل بناء يقوم على هذه الأرض، في كل مدرسة تشيد، وكل مستوصف يقام، وكل طريق يعبد، وكل حياة تولد..

***

إنه شعب الجبارين.. تذكرت ذلك وأنا أقف أمام ضريح القائد الرمز، هذه العبارة التي سمعتها كثيرا هنا، كلما تساءلت عن سر هذا الصمود، وهذه القوة التي تجعل فتى في ريعان شبابه، يواجه دبابة مدججة بأعتى الأسلحة، بصدره العاري، وينازلها بحجارة، ولا يخاف غدرها.

إنها الأرض.. التي عليها ما يستحق الحياة.. الأرض التي سمعتها تغني رغم الجراح، وتطرب رغم المأساة الرابضة فيها:

أنا الأرض

والأرض أنت

خديجةُ! لا تغلقي الباب

لا تدخلي في الغياب

سنطردهم من إناء الزهور وحبل الغسيل

سنطردهم عن حجارة هذا الطريق الطويل

سنطردهم من هواء الجليل.

إنها أرضنا.. ومن حقنا أن نفرح فيها.. يقول لي والد العريس، وهو يحتفي بابنه في يوم زواجه، قبل أن يسحبني للمشاركة في الدبكة الفلسطينية.

لماذا تسحب البيارة الخضراء

إلى سجن، إلى منفى، إلى ميناء

وتبقى رغم رحلتها

ورغم روائح الأملاح والأشواق

تبقى دائمًا خضراء ؟!.

أنظر إلى جبال الأردن ونحن نعبر نحو جسر الملك حسين، ومنه إلى معبر الكرامة، هنا في مدينة الشونة الجنوبية في منطقة الأغوار تناثرت بضع محلات تجارية، توقفنا للتصوير لاستكمال تعبئة الاستمارة اللازمة لدخول الأراضي الفلسطينية..

كانت المنطقة هادئة في تلك الساعة الأولى من الليل، أخذها بعض الرفاق سانحة لشرب الشاي، وتخفيف بعض التعب، عدنا بعدها لنواصل المشوار، حيث بدت أضواء فلسطين تلوح من البعيد، وكنا نتأملها بكل شوق وفرح.

على الجسر استجدي العبور

كانت أضواء فلسطين التي تبيناها من البعيد، تضيء معها الشوق الذي اشتعل في القلوب، وتوقد الحنين الذي نبت في صدورنا.. كانت اللوحة تشير إلى أننا نمضي في جسر الملك حسين ونقترب من معبر الكرامة، أتأمل صورة المكان، أبحث عن التفاصيل المنسية هنا، عن عبرات وآهات المهجرين من ديارهم، عن النكسة التي سرقت الوطن من أهله، وشردتهم في المنافي والمخيمات.

أتأمل الوجع النابت في القلوب، وأنات الصدور، الشوق الذي يفر من أفئدتنا ليعانق نسيم فلسطين، ويحضن هواء الجليل ونابلس، وبيت لحم والقدس والخليل، وكل أرض اشتاقت لنسائم الحرية، فترتد الآهة إلى صدري، وتنام عليه.

تقترب الحافلة من معبر الكرامة.. نقف قرب بوابتها، باحثين عن فتات الكرامة التي تناثرت هنا، وبقيت لنا، أستعيد ذاكرة التاريخ الموسوم في المكان، فأرى أبا عبيدة بن الجراح وضرار بن الأزور وشرحبيل بن حسنة ومعاذ بن جبل، وأرى صدق وعد الله في انتصار الروم على الفرس من بعد غَلَبِهِم، أرى الكرامة تينع بالبواسل، وتثمر رجالا باعوا أرواحهم ودماءهم فداء للأرض، فحققوا بعضا من العزة التي فُقدت، واستعادوا بعض بهائها.

تحضرني معركة الكرامة في منطقة غور الأردن على الضفة الشرقية من

النهر المقدس، وبطولات الثوار وقوات العاصفة التابعة لحركة فتح، والنزال البطولي مع القوات الغاشمة على طول جبهة القتال من أقصى شمال الأردن إلى جنوب البحر الميت، وكيف اضطر الإسرائيليون إلى الانسحاب الكامل من أرض المعركة تاركين وراءهم ولأول مرة خسائرهم وقتلاهم، دون أن يتمكنوا من سحبها معهم.

***

نعبر الكرامة، أو نتركها وراءنا، لا شيء مختلف، فالكرامة مهدورة، والأوطان ضائعة، وها نحن ندخل أرضنا العربية بإذن المحتل، ونقف انصياعا لأوامره وتعليماته.

كان رفيقنا في هذه الرحلة أبو يزن هشام واصف، المستشار في السفارة الفلسطينية في مسقط، وكنا أحد عشر كوكبا، ننشر أبصارنا في المكان، محاولين التقاط صورة تجانب الصورة المتخيلة للحدود الأردنية ـ الفلسطينية.

بضعة كيلومترات، كنا بعدها ندخل البوابة، متأهبين لوضع أقدامنا على الأرض الفلسطينية، كان المعبر في تلك اللحظة يعج بمجموعة من الحجاج الفلسطينيين العائدين من الديار المقدسة، بعد إتمام مناسكهم، وكان عليهم الانتظار طويلا حتى تسمح لهم السلطات الإسرائيلية التي تسيطر على المعبر بحكم الاتفاقيات الموقعة، بالدخول.

ورأيت لأول مرة الجندي الإسرائيلي..

رأيته بخوذته، وسترته الواقية، ممتطيا بندقيته، وهو يجول ببصره في العابرين بين الحدود، يفتش في سحناتهم ما يبرر تفريغ رصاصه في أي منهم، رأيته كذئب هائج اقتحم على غزلان وادعة، فراح يزأر هنا، ويفترس هناك، ويبث الرعب في المكان.. دون أن يكون له حق في المكان.

ملامح الجندي لا تقول إنه من هذه الأرض، ولا تقول إنه يبتسم لهذه الأرض، لكني لا أستطيع تبيان مشاعره الدفينة، هل هو سعيد بعمله، أم أنه يتمنى مكانا آخر، هل يخاف من الموت، أم هو مستعد له، هل يحترم العابرين، أم يمقتهم؟..

ورأيته بعدئذ يرمقني بنظرة، اصطدمت بنظرتي إليه، فحار السؤال بيننا، هو مثلي يسأل نفسه، من أكون، أنا الشخص الغريب، لكنه بالتأكيد قرأ مشاعري، وأنني لا أحبه، ولست سعيدًا برؤيته في هذا المكان.

قال لي ـ إنّ الوطن

أن أحتسي قهوة أمي

أن أعود في المساء..

سألته: والأرض؟

قال: لا أعرفها

ولا أحس أنها جلدي ونبضي

مثلما يقال في القصائد.

في الجوار كان مجموعة من العمال يقومون بتنزيل حقائب المسافرين، وترقيمها، ثم إدخالها إلى بوابات تفتيش الحقائب، وأخالهم من العمال الفلسطينيين، وقد بدا عليهم العناء والتعب من عملهم المرهق، وحمل الحقائب والأمتعة، والإنهاك الأكبر أن يكونوا عمالا عند من يسُومُونهم سُوءَ العذَاب، يُذبّحُون أَبناءهم ويستحْيُون نساءهم.. ومرة أخرى لم أكن أعرف إن كانوا سعداء في عملهم ذلك، أم مغلوبين على أمرهم.

كان علينا في البدء أن نبرز إذن الدخول وجواز السفر أمام الأمن الإسرائيلي للتأكد من اكتمال أوراقنا وصلاحيتها، قبل الانتقال إلى الخطوة التالية.

الحافلة التي أقلتنا من مطار الملكة علياء الأردني، إلى حدود الأراضي الفلسطينية المحتلة، عادت أدراجها من حيث أتت، وقد علمنا أن ثمة حافلة أخرى ستقلنا حتى الوصول إلى أريحا، فالدخول إلى الأراضي المحتلة للحافلات يستلزم تصاريح واشتراطات خاصة..

***

بدا لي المركز الحدودي منظما في مواقع تفتيش الحقائب والأمتعة، وفي الأماكن المخصصة للمسافرين، فبعد عبور طابور متعرج، وصلنا إلى نقطة تفتيش المسافرين، ثم توزعنا على نوافذ ختم تصاريح الدخول، وهنا يتم تقسيم المسافرين حسب جنسياتهم، فهناك نوافذ خاصة لعرب 84، وأخرى للفلسطينيين، وأخرى للأجانب.

كان سير الإجراءات بطيئا جدا، خاصة بالنسبة للأجانب الذين كان عليهم أن ينتظروا طويلا، حتى يأذن لهم بالدخول.

مرت الخمس دقائق، تلتها خمس أخرى، وخمس ثالثة، وموظفة الهجرة الإسرائيلية تضغط على مفاتيح جهاز الحاسوب تارة، وتنظر لهاتفها تارة أخرى، وتتحدث إلى زميلتها مرة ثالثة، دون أن تلقي بالًا بالواقف أمامها، أو طابور المسافرين الذي بدأ في الازدياد.

تنظر نحوي، وتتأمل الصورة المطبوعة على جواز السفر، وعلى الصورة الأخرى الساكنة في تصريح الزيارة الذي يحمل هوية السلطة الوطنية الفلسطينية، والمكتوبة باللغة العبرية..

سجِّل!
أنا عربي
ورقمُ بطاقتي خمسونَ ألفْ
وأطفالي ثمانيةٌ وتاسعهُم.. سيأتي بعدَ صيفْ!
فهلْ تغضبْ؟.

***

يجري الوقت بطيئا، وأنا واقف أمام النافذة، أنظر للرفاق في صفوف الانتظار، وأرقب القلق في عيونهم من رفض الدخول، وإعادتنا من حيث أتينا، أكتم في نفسي لعنة الانتظار التي كان عليّ تحملها، وأنا أستجدي العبور، كما فعلته من قبلي شاعرة فلسطين فدوى طوقان في هذا المكان:

وقفتي بالجسر استجدي العبور.
آه، استجدي العبور.
اختناقي، نَفَسي المقطوع محمول على.
وهج الظهيرة.
سبع ساعات انتظار.
ما الذي قص جناح الوقت،
من كسّح أقدام الظهيرة؟.

تختم موظفة الهجرة على التأشيرة، إيذانا لي بالسماح بدخول الأراضي المحتلة، وتقذف في وجهي ابتسامة، ترتد خائبة إليها، وأنا أولي ظهري عابرا دون كلمة شكر، أو حتى ابتسامة خافتة، فالقلب سقيم، والجراح غائرة، ودماء فلسطين لم تجف، ولن.. إلا برحيلهم، وانتهاء احتلالهم.

لم يعرفوني في الظلالِ التي

تمتصُّ لوني في جوازِ السفر
وكانَ جرحي عندهم معرّضًا
لسائحٍ يعشقُ جمعَ الصور
لم يعرفوني، آه.. لا تتركي
كفّي بلا شمسٍ،
لأنَّ الشجر
يعرفني
تعرفُني كلُّ أغاني المطر
لا تتركيني شاحبًا كالقمر!.
يتبعني رفاق الرحلة.. الواحد تلو الآخر..

نكتمل عند حزام خروج الأمتعة.. أتبين حقيبتي، وكذلك يفعل الرفاق، وحده حمود الطوقي يبحث عن حقيبته، فيتطوع بعض العمال هناك بالبحث عنها، حتى يجدها، أسمع رجل أمن إسرائيلياً ينهر سالم الجهوري بلكنة شامية خالصة لأنه أجاب عن سؤال موجه للوضاح المعولي حول ماهية محتويات حقيبته، تقع عزيزة راشد في مطب تصوير لافتة داخل المركز، يتذمر عاصم الشيدي من الإذلال على نوافذ العبور، ويبدو بين الجمع مصطفى القاسم وابتسامته تكبر، فهو على مقربة من مسقط رأسه، ومهد طفولته، أنظر لكل ذلك وأتبين دهشة باقي الأصدقاء، من معالم الصورة التي تتضخم في تلك اللحظات.

***

نخطو خارج المركز، نتنفس أولى نسائم الأرض المباركة، أتأمل ما حولي من صور وملامح، أمتعض من العلم المرفوع قريبا مني، ومن التعبير الذي

يرمز إليه، ومن الكتابة العبرية، ومن المارين خلف الكلمات العابرة، ومن اسم المركز الحدودي والجسر الذي أصبح باسم «أللنبي».

إنهم يحتفون بواحد من الذين مهدوا لسرقة هذه الأرض وتهجير أهلها، مقابل الذين أحضروهم من أصقاع العالم، لتكون الأرض وطنهم البديل..

يسأل حمدان البادي، عما إذا كان أللنبي هو ذاته القائد البريطاني الذي قاد قوة التجريدة المصرية في الاستيلاء على فلسطين وسوريا عامي 1917 و1918م.

نعم يا حمدان هو ذاته.. وقد بدأ ذلك بعد وعد بلفور المشئوم في الثاني من نوفمبر1917م، حيث قاد الجنرال إدموند أللنبي قائد القوات البريطانية احتلال غزة في السابع من نوفمبر1917م، وشكلت هذه الحملة على غزة بداية نهاية الإمبراطورية العثمانية واحتلال مدينة القدس الشريف في ديسمبر 1917م، وهناك قال قولته المشهورة: «الآن انتهت الحروب الصليبية».

هو تاريخ مثخن بالجراح وبالهزائم، تصور الأرض التي انطلق منها ذات مرة أبطال الصاعقة ورجالات المقاومة، ها نحن نقف عليها بموافقة الأعداء، ونلتمس الدخول إليها، ومهما علت فرحتنا بالوصول إلى هذا المكان، إلا أن غصة في حلقي كادت تخنقني، فكم من العائدين الذين حال عساكر الاحتلال بينهم وبين ديارهم وأوطانهم..

لن يمرّ العائدون

حرس الحدود مرابط..

يحمي الحدود من الحنين.

***

ووصلنا الأرض الفلسطينية.. ووددت في تلك اللحظة لو ضممت ذراعي، وحضنت هواء فلسطين، وقبلت تراب فلسطين، وشممت عطر فلسطين، وددت لو أصرخ باسمها عاليا.. أشق هدأة الليل، وأضيء مع نجمة في البعيد طرق فلسطين، وبياراتها، ودورها، وكل بقعة فيها..

كان الطريق يأخذنا حتى المركز الحدودي التابع للسلطة الفلسطينية، في مدينة أريحا البوابة الشرقية لفلسطين، هناك ينتظرنا محافظ أريحا والأغوار ليكون في استقبالنا والاحتفاء بوصولنا الأراضي المقدسة.

كان الوقت حينها يقترب من التاسعة مساءً، يدثرنا صمت الليل، وسكون الطريق الواصل حتى المركز الحدودي.. فقد انشغل كل منا بهاتفه، ينقل صدى اللحظات الأولى المتحققة لحلمه.

لم يكن محافظ أريحا والأغوار المهندس ماجد الفتياني أقلنا فرحًا بتحقيق حلم الوصول ودخول الأراضي الفلسطينية، فقد رأيته يعانق كل فرح تناثر في تلك اللحظة، وكانت كلماته معبرة، تلهج بالشكر والثناء لهذه المجموعة التي كسرت «مقاطعة» البعض لزيارة الأراضي المحتلة بحجة «التطبيع»..

وبذات الحب الذي قابلنا به، قلنا للمحافظ عن مشاعرنا الأولى، ونحن نصل إلى المكان/ الحلم، قلنا عن الأشواق التي سكنتنا مذ أن تحدد موعد الزيارة، وكيف مرت ساعات الرحلة بطيئة جدا، وددنا لو شطرنا الزمن، وبددنا المسافات حتى لحظة الوصول.

كنت أستعجل الخروج من القاعة التي ضمتنا في تلك اللحظة، فقد اشتقت لنسيم فلسطين، وليل فلسطين، وأرض فلسطين، اشتقت للتحليق في سمائها، والعبور على أرضها، أريد أن أحتوي كل تفاصيل الحياة هنا،

وأن أكون جزءا منها، وتقبيل كل ذرة ضمت حكاية نضال، واختزلت مرحلة كفاح..

كنا في الهزيع الأول من الليل.. وكان عوض باقوير يسهب للمحافظ عن المشاعر المكنونة في صدورنا، وعن الفرح الذي يكسونا هذه اللحظة بالوصول، وعن التقدير العُماني على كل المستويات للشعب الفلسطيني وقيادته، وعن أشياء كثيرة لم أستطع تبيانها، فقد كان باقوير يتحدث بخفوت، وأراه ينحت الكلمات.. ويقذفها من بحر واسع من التعابير التي اختزلها لهذه اللحظة.

***

في اللحظة التالية، انتقلنا إلى حافلة ثالثة، لتأخذنا إلى رام الله، مستقرنا خلال فترة الزيارة، ومنطلقنا للبرنامج المعد لنا من قبل الرئاسة الفلسطينية.. أسحب ورقة من بين الأوراق التي ترافقني، أتأمل برنامج الزيارة، أقذف فرحة هنا، وأخرى هناك، يزداد الشوق لكل مكان خطّ رسمه، وبان اسمه على الورقة..

استعجل الوصول إلى رام الله، لانطلق من هناك مغردا، كما الطيور التي خيل لي أنها تحلق وادعة في سماء فلسطين.. أتراها كذلك؟!

صوت المذياع يقرأ علينا نشرة أخبار، من التي تعبنا من سماعها، لكننا الآن في قلب الخبر، وأحداثه على مرمى حجر منا، كل بقعة هنا، صاغت خبرًا من الأخبار التي ترددت على مسامعنا.

أطلب من السائق أن يغير الموجة، فيقترح أحد الرفاق صوت فيروز، ويقترح آخر صوتا من فلسطين، ثم ترسو بنا السفينة إلى أغنية حماسية تلهب الأشواق، وتنفض عنا وعثاء السفر.. وكان صوت محمد عساف يرسمنا بصورة أخرى، وجدنا أكفنا تصفق، وحناجرنا تردد معه:

علّي الكوفية علّي ولولح فيها..

وغني عتابا وميجانا وسامر فيها
علّي الراية برام الله وبجبال النار
وعقال العز عقالك عزم وإصرار.

***

كانت الحافلة تقطع الدرب، الملتف بين جبال وسهول وهضاب، وأضواء تلوح من البعيد، وعلى القريب كان جدار الفصل العنصري يمتد ليحكي مأساة شعب، وجبروت احتلال.. قال لنا أسد شجاعي من الرئاسة الفلسطينية الذي استقل الحافلة معنا، والذي سيكون رفيقنا في الزيارة مع رفيقه محمد اسطيح: إن عليهم أن يسلكوا طريقا ملتوية، حتى يتجنبوا حواجز التفتيش، والطرق الممنوع على الفلسطينيين دخولها..

لكننا في تلك اللحظة، لم نتذمر من طول الطريق الذي علينا أن نسلكه، فقد توالت مشاهد الحياة في أريحا، الأسواق والمحلات التجارية وبعض المنازل التي تناثرت هنا وهناك، والقرى المترامية في البعيد..

والليل يمضي بنا.. يسامرنا الشوق، ونحن نتدثر بعباءته، والحافلة تمشي الهوينا، والطريق يغني، وأعيننا المتعبة تجول خلف نافذة، توزع بصرها في مساحات العشق الممتدة، والهدوء يكتب السطر الأخير لمحارب استراح من عناء المسير، ووضع بندقيته جانبا، وراح يزرع شجرة الزيتون.

لم أكن قد دخلت في الصورة بعد.. فقد كان ثمة خيط رفيع يفصل الحلم بالواقع، وكنت أنا أقف على ذلك الخيط، أحاول تبيان ملامح الصورة المتوالية أمامي.. وأنظر للرفاق والفرحة التي تعلو محياهم، وكلمات الفرح المحلقة بيننا..

***

كان منظر الجدار العنصري وهو يرافق أبصارنا، بشعا ومخيفا في آن واحد، كان يحجب الجمال، ويقتل الأرض، ويذل الأهالي، كان يلتف ليتحول إلى سجن كبير، يطوق مناطق فلسطينية، ويلتهم أجزاء منها، بحجج واهية، قوامها أمن الاحتلال وسلامة المغتصبين.

لكن الروح الفلسطينية الوثابة، تغلبت على الجدار، وعلى عنصرية الاحتلال، وإذلاله، وحربه الشعواء، وعلى القتل والتهجير بحق أبناء الأرض من أجل توطين أكبر عدد من المهاجرين اليهود والمستوطنين الجدد القادمين من أقطار كثيرة، أوروبية وغير أوروبية.

ورأيت بعدها رام الله..

رأيت رام الله.. فحضنتها كطفل اشتاق حضن أمه، وراح يبكي في حجرها.

ومرة أخرى، هاهي فلسطين يا وجه المسافر..

كيف تقهر هذه الأرض!

أفتح نافذة على رام الله..

من شرفة في الطابق الثالث في فندق جراند بارك على تلال ميسون، أطل على ما أريد.. أطل على شجر يحرس الليل من نفسي.. ويحرس نوم الذين يحبونني ميتا.. أطل على الريح.. تبحث عن وطن الريح في نفسها.. أطل على رام الله التي بدت في تلك الساعة المتأخرة من الليل هادئة وادعة، لا حركة في الشارع، ولا أضواء مركبات قادمة من البعيد، ولا حتى نافذة مفتوحة، غير نافذتي المطلة على هذا السكون..

كان الليل قد استراح في هذه المدينة، قبل أن يشق طريقه، نحو مدينة أخرى، ويسامر الهائمين، وكانت نافذتي المشرعة على البيوت والدور السكنية العالية، وعلى الشوارع، والتلال البعيدة، وعلى الأحجار التي هدأ ضجيجها.. تفتش عن صورة تهز القلب، وتسح الدمع الذي استكان واستراح.

لا شيء يبعث على البكاء..

أنظر إلى رام الله، وكأني أنظر إلى أي مدينة أخرى، الحرب وضعت أوزارها، فكأنها لم تَمُر من هذه الدروب، ولم تسكن تلك البيوت، وكأن تخوم المدينة لم تسطر بطولات نضال وكفاح، وكأن أشجار البرتقال لم ترو بدماء الشهداء.

لم أبكِ..

أنا الذي صرخت في مكالمة هاتفية: إنها رام الله يا أمي، إني أراها، وألمسها، وها أنا أسير في دروبها..

كانت أمي وجلة وهي تسمع بنبأ سفري إلى فلسطين، ولم تفتأ تسأل عني حتى لحظة وصولي.. طمأنتها بأن رام الله صبية، وهي كما المدن العشيقة، لا شيء مختلف هنا، حتى تسح جزعها عليّ، وتبكي على سجادة صلاتها..

ساعة.. ساعتان.. ثلاث مرت وخيوط الفجر بدأت تضيء العتمة، ومن البعيد أمكنني رؤية بضعة جنود يتهيأون لبدء مناوبتهم الصباحية، لم أتبين في البدء ما إذا كانوا جنودا فلسطينيين أم محتلين، رغم أن أسد شجاع قال لي: إن حفظ الأمن هنا، بات من اختصاص السلطة الفلسطينية..

على مائدة الإفطار، قال لي الرفاق: إنهم لم يناموا الليلة، أكثرهم فتح نافذته، وتأمل رام الله، وبعضهم خرج هائمًا في شوارعها، يفتش عن صورة للحياة.. الشوارع التي عدنا إليها بعدئذ، تحرسنا شمس رام الله، ونسيمها البارد الذي داعب النعاس في جفوننا..

كنت أتأمل الدروب وقد كشفت عن ملامحها، وبانت معالم المدينة، وأمكنني رؤية العابرين في الطرقات، والذاهبين إلى الاتجاهات الأربعة، ومع كل ذلك لم أبكِ..

أسواق ومحلات تجارية استعادت عافيتها، وطرق معبدة، ومركبات حديثة، وهنا أطفال يذهبون إلى مدارسهم، طفلة تمسك بيد رفيقتها، وتعبران الشارع معا، المركبة القادمة، تتوقف ريثما تعبر الطفلة الطريق، رجل الأمن الفلسطيني، يشير إلى المركبة بالتحرك، كهل يقاسم رفيقه كوب الشاي،

وينفثان وجع السنين، بابتسامة هزيلة، تتبدد في الهواء.

نقترب من نقطة تفتيش، الجندي المحتل الذي رأيته يرابط عند الحدود، ذاته هنا، يرفع كفه، ويأمرنا بالوقوف، نبرز له أوراقنا، وإذن المرور، ثم يفسح لنا الطريق..

لم نقل شيئا إزاء هذا الوضع، طُلب منا الصمت في حضرة الحاجز الإسرائيلي، حتى ضحكاتنا التي كنا نطلقها ونحن في الحافلة، وئدت في مهدها، والسكون خيّم على أرواحنا، وقلوبنا وجلة مما سيأتي.. كانت نظرة الجندي المحتل تحمل تحديا لنا، نحن المهزومين، الضعفاء المغلوب على أمرهم، الذين لا حول لهم ولا قوة.. يمشون على الأرض هونا.. وإذا أوقفهم المحتلون قالوا سلاما.

يقول أبٌ لابنه: لا تخف.

لا تخف من أزيز الرصاص!

التصق بالتراب لتنجو! سننجو ونعلو

على جبل في الشمال، ونرجع حينَ

يعود الجنود إلى أهلهم في البعيدِ.

وفيما العساكر في مواقعهم، يرصدون الحنين بين تخوم المدن، وبين حقولها، مضينا نحن، كان الطريق يتعرج بين الجبال كثيرا.. يصعد تارة، ويهبط أخرى، في الأسفل تبدو التجمعات الفلسطينية الفقيرة من كل شيء في الحياة.. وفي الأعالي تسكن المستعمرات، وشتان بين أصحاب الأرض والمحتلين، وكانت المعدات الإسرائيلية تنحت الجبال، وتسرق الصخور،

وتذر الغبار في وجوه العائدين، والمرابطين في ديارهم، القابضين على جمر الوطن.. يبحثون عن الماء المسروق من آبارهم، ويفتشون عن بقايا زيتونة.. فلا يجدون إلا شظايا الرصاص، ورائحة البارود.

قال أبو يزن، وهو يشير إلى المستعمرات، هؤلاء يسرقون الماء من الأسفل، حيث يسكن الفلسطينيون، ثم يبيعونه لهم بقدر معلوم.

أنظر إلى مستعمرة بسغوت على جبل الطويل، الطريق إليها مختلف عن باقي الطرق، والحراسة تطوقها من كل مكان، أشجار الزيتون والفواكه المحيطة تم اقتلاعها لدواع أمنية، هنا يمنع الفلسطينيون من مجرد الاقتراب من المكان.. عليهم أن ينظروا فقط من البعيد إلى المستعمرات، وهي تتربع المواقع الإستراتيجية، وتأخذ مكانها في أجمل البقاع في وطنهم.

لا أعرف المستعمرين هناك، من أي البلاد جاءوا.. وماذا يفعلون في هذه الأرض، ولا أعرف مشاعرهم، وكيف ينظرون إلينا، هل هم خائفون، وجلون، هل يشعرون بالأمان، هل يتمنون لو عادوا لشتاتهم، ورحلوا عن هذه الديار، التي بالتأكيد يعرفون أنها ليست لهم، لا أعرف.. لا أعرف إن كانوا سعداء باحتلالهم أرضنا، أم لا.

ولنا بلادٌ لا حُدُودَ لها، كفكرتنا عن
المجهول، ضيّقَةٌ وواسِعَةٌ. بلادٌ...
حين نمشي في خريطتها تضيقُ بنا
وتأخذنا إلى نَفَقٍ رماديّ، فنصرخ
في متاهتها؟! وما زلنا نحبُّك.

لم تغب المستعمرات عن عيوننا، كلما وجهنا شطرنا صوب جهة، وجدناها ماثلة أمامنا، ونقاط التفتيش الإسرائيلية، وما تبقى من آثارها، في كل مكان نعبر إليه، في أبوديس، ونحن في طريقنا إلى جامعة القدس، توقف السائق في جهة بعيدة، قال إنه لن يستطيع الاقتراب من المكان، فجنود الاحتلال يضربون طوقا أمنيا على الجامعة وما حولها في هذه اللحظة، والطريق مغلقة..

تقف الحافلة بنا بعيدا.. نترجل منها، ونبدأ في المسير، على وقع صفقات الشباب الفلسطيني، الخارج للتو من حرب مميتة، بعدما اقتحم الجنود قريتهم فجرا، وقتلوا أحد المطلوبين لديهم، ورموا السكان بقنابل الغاز السام والرصاص المعدني.. كانت آثار المواجهات تصبغ المكان.. الطرق.. المحلات التجارية.. البيوت المطلة على الشارع.. المركبات المحترقة..

أنظر لألسنة الدخان المتصاعدة من حاويات القمامة التي سدت الطريق، لشظايا الرصاص المتناثر الذي أطلق على الشباب العزل، لرائحة البارود التي تلف المكان، للحرب التي دارت رحاها هنا، للأشجار التي خدشت، وما سقطت، كنت أسير في الطريق كاسرا وجه الحصار، لا.. لم أكن أسير في المقدمة، كان قلبي وجلا، وكنت خائفا أترقب، أن أجد نفسي في قلب المعركة.. هل كانت معركة بالفعل؟؟.

يتقدم الرفاق، يقول هشام واصف، سنمشي دون أن نأبه لهم، ويقول أسد شجاع: إنه خبزنا اليومي، ويقول محمد سطيح: لا عليكم تقدموا..

يبدأ الأصدقاء في التقدم، مصطفى.. حمود.. عوض.. حاتم.. عاصم.. حمدان، وأنا والبقية..

يقيسُ الجنودُ المسافةَ بين الوجود وبين العَدَمْ

بمنظار دبّابةٍ...

نقيسُ المسافَةَ ما بين أَجسادنا والقذائفِ بالحاسّة السادسةْ.

تسري الشجاعة في دمي، أتقدم أكثر.. وأقف قريبا من العربة العسكرية، وجنود الاحتلال ينظرون نحونا بشرر، لا آبه بهم، أطلب من مصطفى التقاط صورة لي، على أن تكون عربة الجند المدرعة في المشهد، ولا بأس بالجندي وهو يمسك بندقيته، لتظهر بطولتي أكثر.. ينظر الينا الفتية الفلسطينيون من بعيد، يصفقون لنا، ويطلقون الزغاريد للشباب العُماني الذي كسر الحصار على الجامعة، وفك الطريق الواصل إليها، ومصطفى يقترب بعدسته، ثم يأخذ حمود الطوقي المشهد، وكذلك يفعل عاصم الشيدي.. يهرول الآخرون لأخذ دورهم، تتسع الصورة أكثر.. الكاميرا التلفزيونية تدور في تلك اللحظة، فهذه أجمل توثيق لزيارة الوفد العُماني، يمكن أن تبث في نشرة أخبار العاشرة، يبدو عوض باقوير صلبا، وهو يتقدم إلى الأمام، ومعه الوضاح وحمدان وعبدالعزيز.. يا إلهي الجميع يقف بمحاذاة الآلة العسكرية الإسرائيلية، ولا يهتم للغضب الذي يتصاعد من عيون الجنود وهم يرمقوننا، يتحمس مصطفى فيقترب من العساكر ويسألهم: لما أنتم هنا.. وفجأة.

طلقة تهز المكان..

تسقط عزيزة أرضا..

ويرتعد عاصم..

يتوقف مصطفى عن الحديث مع الجنود..

يلتفت عوض، ليتابع مستقر الرصاصة..

وأتسمر أنا في مكاني.. وقد ارتعدت فرائصي، وتسارعت دقات قلبي..

ثم طلقة أخرى.. وأقفز من مكاني مهرولا، بحثا عن احتماء..

في وجوه الجنود سخرية واستهزاء.. وفي وجوهنا خوف وتعب.. وما بيننا بندقية تهابُ من حجر، وكنا قد دخلنا في تلك اللحظة إلى المشهد الإخباري، دون أن نعرف أنه ليس مشهدا سينمائيا، حتى نمارس فيه أدوار البطولة..

نلمح مجموعة أخرى من جنود الاحتلال على قارعة الطريق وقد استراحوا من أداء المهمة الموكلة لهم، بعضهم يغط في النوم، وآخر يصلح فوهة بندقيته، فيما يشرب الباقي قهوتهم..

أَيُّها الواقفون على العَتَبات ادخُلُوا،

واشربوا معنا القهوةَ العربيَّةَ

فقد تشعرون بأنكمُ بَشَرٌ مثلنا.

أَيها الواقفون على عتبات البيوت!

أُخرجوا من صباحاتنا،

نطمئنَّ إلى أَننا

بَشَرٌ مثلكُمْ!.

أنظر لسحنات الجنود، وملامحهم، ليسوا من طين هذه الأرض، هؤلاء سمر، وأولئك الذين في المستوطنات، والذين رأيتهم على الحدود، بيض،

وهؤلاء عجاف، وكذلك أولئك، وهذه الأرض لا تنبت الشوك، أقرأ في عيونهم الخوف، وهم مدججون بأعتى الأسلحة، يود الجندي لو كان في بيته، يستريح من البندقيّة، ويغفو قليلًا على مقعد الخيزران، ويحنو على فرو قطته.

هدوءًا، هدوءًا، فإن الجنود يريدون

في هذه الساعة الاستماع إلى الأغنيات

التي استمع الشهداء إليها، وظلّت

كرائحة البنّ في دمهم... طازجة.

أخبرتنا عزيزة أنها سقطت، من الخوف، وقال مصطفى القاسم أنه لم يرتعد، وكان يتمنى الشهادة، وقال آخر إنه كان سيفتح صدره، ليحضن رصاصة العدو، وشاب فلسطيني رافقنا أشار إلى أن الرصاصة ربما كانت صوتية.. من يعلم!!.

***

في جامعة القدس، تمثل لنا وجه آخر من أوجه العنصرية البغيضة التي يمارسها الاحتلال بحق أبناء هذه الأرض، فعلى الرغم أن الجامعة قد حصلت على المركز السابع على مستوى الوطن العربي من الناحية البحثية والعلمية، واعتبارها من أهم الجامعات في فلسطين والعالم العربي، إلا أن سلطات الاحتلال الغاشمة لا تعترف بهذه الجامعة، رغم اعتراف دول العالم بها، والسبب يعود إلى اسم «القدس» الذي تحاول إسرائيل مصادرته من كل ما يمت لفلسطين بصلة، وقد ضغطت دون جدوى لتغيير اسم الجامعة، وما فتئت تهدد بمصادرة الأرض المقامة عليها، بحجة بناء طريق دائري.

كان عميد الجامعة وإدارتها يسهبون في الحديث عن جامعة القدس، وانجازاتها، وجهودها من أجل الحفاظ على كيانها، وإبقاء اسم القدس شعلة مضيئة على منارتها.. في كثير من الأحيان يتم محاصرة الجامعة واقتحامها من قبل جنود الاحتلال بحجج واهية، ليس أقلها البحث عن مطلوبين..

هناك سقط شهيد من طلبة هذه الجامعة، وهناك سقط شهيد آخر، وهذا الممر يشهد على مواجهة دامية أدت إلى استشهاد وجرح عدد من طلبة الجامعة، دون أن يفت ذلك من عزيمة الطلاب، ويثبط هممهم في ارتياد الجامعة، وتحدي الحصار..

عندما تختفي الطائراتُ تطيرُ الحماماتُ،

بيضاءَ بيضاءَ، تغسِلُ خَدَّ السماء

بأجنحةٍ حُرَّةٍ، تستعيدُ البهاءَ وملكيَّةَ

الجوِّ واللَهْو. أَعلى وأَعلى تطيرُ

الحماماتُ، بيضاءَ بيضاءَ. ليت السماءَ

حقيقيّةٌ قال لي رَجُلٌ عابرٌ بين قنبلتين.

في جامعة بيرزيت التي تعتبر من أفضل الجامعات الفلسطينية من حيث المستوى الأكاديمي الذي تحتله، وجدنا ذات المشهد المأساوي لمضايقات جنود الاحتلال، وممارساتهم التعسفية بحق الطلبة، من منع واعتقال وقتل.. ولا غرابة فهذه الجامعة كما أخبرنا عميدها، شاركت بفاعلية في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي، فالبطل يحيى عياش كان من خريجيها، وهو من أوائل صانعي القنابل التي اشاعت الذعر في الشارع الإسرائيلي في مطلع

التسعينيات من القرن الماضي.

ولعب خريجو جامعة بيرزيت دورا مهما في رسم الأحداث على الساحة الفلسطينية، فالدكتور فتحي الشقاقي أحد خريجيها وهو مؤسس حركة الجهاد الإسلامي ذات الامتداد الواسع والراسخ في فلسطين، وأيضا مروان البرغوثي، الذي رأينا رسمه مع القائد الرمز ياسر عرفات على واجهة الجدار العنصري، ونحن في طريقنا إلى القدس، أحد خريجيها.

حين مشينا في حرم جامعة بيرزيت، وتنقلنا بين أقسامها، رأيت طلبة غير الذين تصورتهم، ممتلئين بالحياة، ومفعمين بالأمل، ونابضين بالصمود، رأيتني وكأني في حرم جامعة أخرى لم تعش قساوة الاحتلال ومعاناته.. ولم تدفع ثمن استمرارها من دماء أبنائها، أو كأن الأرض تحت أقدامهم لم تئن من اقتحام الصهاينة، ولم تمت عصافير بيرزيت بطلقة طائشة..

كانت همم الطلبة تزهر فرحا، رأيت إنتاجهم في مركز تطوير الإعلام في الجامعة فأبهروني، كان العلم هو السلاح الذي يحارب به الشباب الفلسطيني القمع والاحتلال، لم تثبط عزائمهم، ولم يستسلموا لواقعهم المرير، وكانت الآلة العسكرية، بكل أساطينها وجبروتها ضعيفة، أمام هذه العزيمة..

أيَّها الساهرون ! أَلم تتعبوا

من مُرَاقبةِ الضوءِ في ملحنا

ومن وَهَج الوَرْدِ في جُرْحنا

أَلم تتعبوا أَيُّها الساهرون؟

واقفون هنا. قاعدون هنا. دائمون هنا. خالدون هنا.

كانت صورة فلسطين العزة والكبرياء والشموخ، هي التي تتماثل أمامنا، في كل مكان، أراها في جباه الأطفال الذاهبين إلى المدارس، وفي عيون الأمهات اللواتي يقفن على عتبات الفجر ينتظرن العائدين.. وفي حبات العرق المتساقطة من الرجال، وهم يمسحون الحزن عن وجه الوطن، ويرسمون ابتسامة للغد الأجمل، في كل مكان..

اقبض على عنق السنابلِ

مثلما عانقت خنجرْ!

الأرض، والفلاح، والإصرار،

قال لي كيف تقهر..

هذي الأقاليم الثلاثة،

كيف تقهر؟.

عن طين فخّارنا سندافع

إلى بيت لحم هذه المرة..

إلى مهد المسيح، على خطى المهتدين به، الباحثين عن السلام، أسلك مع الرفاق الطريق الواصل إلى المدينة، عبر المساحة الضيقة من شوارع المدينة المسموح للفلسطينيين العبور فيها، على البعيد كانت المستوطنات تأخذ مكانها العالي، وطرقها السهلة، ومساحاتها الخضراء، ودروبها الفسيحة، والسياج الأمني، وكاميرات المراقبة..

نقف عند حاجز الكونتينر المقام على المدخل الجنوبي لبيت لحم، والذي يفصل بيت لحم والخليل عن وسط الضفة الغربية وشمالها.. ينظر الجندي الإسرائيلي إلى وجوهنا، ويتأمل الورقة الصغيرة التي يقدمها له سائق الحافلة، ثم يعاود النظر نحونا، ويشير لنا بالعبور، يقول السائق إن مزاج الجندي اليوم رائق، لذلك عبرنا بسهولة، ذلك أن الحركة عبر الحاجز، مرهونة بأمزجة جنود الاحتلال، فإذا كانوا رائقي المزاج، وهذا هو النادر، فإن الحركة ستكون أقل صعوبة، وأما إذا كان الجنود قد تعكّر صفوُهم؛ فإنهم سيذيقون المارين ألوانًا من الإهانات بلا تردّد. فمرّة يوقفون حركة السير لساعة أو أكثر دون أي سبب، ومرة يقومون بتفتيش النساء دون الرجال، ومرات كثيرة يحتجزون بطاقات الهوية لعدد من المواطنين ويوقفونهم لساعات..

مثل الكونتينر، هناك عشرات الحواجز التي وضعها الاحتلال لإذلال الفلسطينيين، وتمزيق أوصال الأراضي الفلسطينية المحتلة، ويتم عبور هذه الحواجز بطريقة مهينة للكرامة الإنسانية، فبالإضافة إلى ضرورة حمل التصاريح، وبطاقات الهوية، يتم فتح بعض هذه الحواجز في ساعات معينة وغلقها في ساعات أخرى، ويتم عبور بعضها سيرا على الأقدام، كما هو الحال في حاجز «قلنديا» جنوب رام الله على الطريق التي تصلها بمدينة القدس المحتلة.. وقس على ذلك من تأخير وعذاب نفسي ومعاناة، كلها مرهونة بمزاج الجندي الإسرائيلي.

حاجز الكونتينر يلخص معاناة المواطنين الفلسطينيين في التنقل بين أرجاء الضفة، ويمنح انطباعًا واقعيًا عن جانب من الحال الذي آلت إليه الحياة اليومية للفلسطينيين في ظل سياسات التمزيق والعرقلة التي ينتهجها الاحتلال، ومن بين من يتجرعون ضريبة المعاناة هذه، طلبة الجامعات الفلسطينية، علاوة على العمال الذين يتنقلون بين أرجاء الضفة بحثًا عن العمل.

عرفت لاحقا، أن حاجز الكونتينر سيِئ السمعة، يعتبر مصيدة يتصيد بها الجنود كل شخص سبق وأن دخل السجن في أي فترة سابقة، أو له «ملف أمني» كما يسمونه، أو يشتبه بأنه من ناشطي التنظيمات الفلسطينية، فيقوم الجنود بتوقيفه فترة طويلة، ومن ثم يُعتقل أو يُطلب إليه مراجعة مخابرات الاحتلال، أو عليه أن يعود من حيث أتى، ولا يُسمح له بالعبور في أحسن الأحوال.

ويستخدم الحاجز أيضا للمساومة، بغرض تجنيد العملاء للعمل لصالح المخابرات الصهيونية، فمعظم طلاب جامعة القدس الذين يمرّون بالمعبر، يطلب إليهم مراجعة ضباط المخابرات بمستعمرة «معاليه أدوميم»، وهناك يقوم الضباط بمساومتهم للعمل لصالح الاحتلال.

ولم يقف العقل الصهيوني عند حدٍ في ابتداع أساليب جديدة لجعل الحواجز أكثر إضرارا بالمواطن الفلسطيني وتنكيلًا به. ففي كثير من الأحيان، يقيم جنود الاحتلال حاجزًا مؤقتًا لا يبعد سوى مائة متر عن حاجز الكونتينر، ويقوم الحاجز الأول بتفتيش المارة ومن ثم يقوم الحاجز الثاني بالعمل الإذلالي نفسه، وغالبًا ما يقوم جنود الاحتلال بمنع سكان شمال الضفة من عبور الحاجز نحو بيت لحم، ويطلبون منهم العودة من حيث أتوا، في رحلة معاناة تتخللها المزيد من الحواجز التي تنتشر في كل اتجاه.

سيمضي زمانٌ طويلٌ ليصبح حاضرنا ماضيًا مثلنا
سنمضي إلى حتفنا، أوّلًا، سندافع عن شجرٍ نرتديه
وعن جرس اللّيل، عن قمرٍ، فوق أكواخنا نشتهيه
وعن طيش غزلاننا سندافع، عن طين فخّارنا سندافع
وعن ريشنا في جناح الأغاني الأخيرة. عمّا قليل
تقيمون عالمكم فوق عالمنا: من مقابرنا تفتحون الطّريق.

***

نترك الكونتينر.. بكل ما يرسمه في حياة الفلسطيني من إذلال ومهانة، إلى مهانة أخرى، تتمثل في عبور طريق شديد التعرجات والانكسارات.

يقول محمد أسد: إنه الطريق الوحيد الذي يربط بين مدينتي الجنوب بيت لحم والخليل ومدينة رام الله، ويسمى طريق وادي النار.. التي أقرأ على مدخلها لائحة تقول: «مشروع طريق وادي النار، هو هدية من الشعب الأمريكي إلى الشعب الفلسطيني»..

لم أسأل «أسد» أو أيًا من مرافقينا عن دلالة الاسم، ولماذا النار ترتبط بالوادي، وبالطريق، لكنني بعد برهة أدرك مدلول الاسم ومعناه، فقد أرهقني الطريق، وسبب لي الصداع، حد أنني أسندت رأسي على مقعد الحافلة، ورحت أستمع لأحاديث الأصدقاء دون تعليق مني، فقط كنت أنظر نحوهم وأبوح لحمدان البادي الذي رأيت مبلغ تعبه هو الآخر، فشاركته البوح، بمعاناة العبور في طريق ملتوٍ، يصعد تارة ويهبط تارة أخرى.

كان الطريق يأخذنا بعيدا عن اتجاه مدينة القدس، المدينة التي نبحث عن رائحتها، أنَّى توجهنا، ونسأل عن قبلتها، فنيمم شطرها، ونحاول أن نتبين انعكاس صورتها على السماء البعيدة..

يا أيّها الذاهبون إلى حبة القمح في مهدها
أُحرثوا جسدي!
أيّها الذاهبون إلى جبل النار
مرّوا على جسدي
أيّها الذاهبون إلى صخرة القدس
مرّوا على جسدي.

***

كان علينا أن نزور في البدء عبدالفتاح حمايل محافظ بيت لحم، للتعرف والسلام عليه، هناك في مكتبه في الدور الرابع، من مبنى أثري، أطللنا على جزء من المدينة، عبر نافذة صغيرة، فيما كان عطوفة المحافظ يتحدث عن المضايقات التي يتعرضون لها، بفعل الاحتلال، والحواجز المقامة على الطريق الواصل إلى المدينة، قال لنا إنه يأتي كل صباح من منزله في رام الله، إلى مكتبه هنا، وعليه أن يجتاز ثلاثة حواجز، وأن يرتهن لإرادة الجندي الإسرائيلي، الذي يكون في الغالب من صغار السن، لتزيد إسرائيل استفزازنا أكثر، فهذا الجندي يمكن حسب مزاجه، إغلاق الحاجز، وتأخيرنا أو إعادتنا من حيث أتينا..

قال لنا بصوت واهن: ليس هناك احتلال في العالم، أبشع من هذا الاحتلال، هذا الشعب الفلسطيني بالملايين لا يملك أي شيء في أرضه، غير الهواء، الهواء الذي لو استطاعوا لحاربونا عليه.

أخبرنا المحافظ كذلك عن اضطهاد الاحتلال لروح المدينة، عن «السرطانات» التي تحيط بها من كل صوب، هذه المستعمرات، التي تطوق الحدود الشمالية للمدينة، وتفصلها بالكامل عن مدينة القدس، التي يجري تهويدها، هذه التي نساها جيل كامل من الفلسطينيين الذين يعيشون في بيت لحم، ولم يعودوا يعرفونها، بعدما فرضت سلطات الاحتلال عليهم حصارا خانقا، وحتمت عليهم الحصول على إذن أمني للخروج أو الدخول إلى بيت لحم.

رأيت الألم في حديثه، وهو يخبرنا عن بيت لحم التي قتلت بالجدار العنصري، الذي يفصل الأخ عن أخيه، ويقطع أواصر الرحم، وينتهك

الحقوق، ويقطع أوصال الضفة، ويمنع إقامة دولة فلسطينية، ويضم الكتل الاستيطانية، ويستحوذ على أكثر المناطق خصوبة، وكذلك يضم ثاني أكبر حوض مائي في الضفة.

قال محافظ بيت لحم، إن محافظته التي يقطنها 195 ألف نسمة، تحتضن وحدها 22 مستعمرة يتواجد فيها بين 60 ألفًا إلى70 ألف مستعمر، وكل ذلك من أجل التأثير على وضع بيت لحم الديموجرافي، وتضييق الخناق على سكانها، وإبعادهم عن مساكنهم، أما الأدهى في ممارسات الاحتلال، فهو محو الصبغة الدينية والسياحية عن بيت لحم مهد سيدنا المسيح عليه السلام، وقبلة مئات الملايين من البشر، والتضييق على السياح، بحيث لا يقضون فيها غير زمن محدود، يغادرونها بعد ذلك للسكنى في المدن الإسرائيلية المحتلة.

لكن المدينة لم تركع.. ولم تستسلم.. ولم تخضع، أوقدت جذوة التحدي، وأشعلت الصمود.. كحال المدن الفلسطينية المحتلة من يافا وحيفا إلى كفر قاسم وتل الربيع.

إلى الأعلى
حناجرنا
إلى الأعلى
محاجرنا
إلى الأعلى
أمانينا
إلى الأعلى
أغانينا

سنصنع من مشانقنا
ومن صلبان حاضرنا وماضينا
سلالم للغد الموعود
ثم نصيح يا رضوان!
افتح بابك الموصود!.

***

على الطريق الواصل إلى كنيسة المهد، كانت أشجار اللوز تتراءى من البعيد، وهي تحيط بالمستعمرات التي تمددت، بحيث قضمت المساحة الكبرى من مداخل مدينة بيت لحم ومساحاتها، وكانت رضا خضر ممثلة الهيئة العمانية للأعمال الخيرية في الضفة الغربية، والتي انضمت لتصحبنا في زياراتنا إلى المدن الفلسطينية، تخبرنا عن معاناة السكان في فترات قريبة، وكيف أن المدينة عرضة لاقتحامات جنود الاحتلال كل حين، بأسباب وعلل مختلفة.

قالت رضا: إن المواجهات مع جنود الاحتلال لم تتوقف، رغم اتفاقيات السلام الموقعة..

كان الطريق شبه هادئ، في تلك الظهيرة الباردة، غير بعض الحافلات التي سلكت معنا ذات المسار، ويبدو أن وجهتها ووجهتنا واحدة.

كان الصداع الذي ألمّ بي، ونحن في الطريق إلى بيت لحم، قد خف قليلا بعد الاستراحة التي أخذناها في مكتب محافظ بيت لحم، وشاي النعناع الفلسطيني الذي تناولته مع بعض الحلوى الفلسطينية، وكنت قد تهيأت لبرنامج زيارات مكثف، أعده مرافقونا من الرئاسة الفلسطينية في بيت لحم.

في ساحة فسيحة، بدت كنيسة المهد بطابعها المعماري العتيق، تأخذ

مكانها في الصورة، وقريبا منها رأيت منارة «المسجد العمري» المسجد الأقدم والوحيد في هذه المدينة.

كانت المساحة الفاصلة بين الكنيسة والمسجد، ساحة تمر عبرها المركبات بتمهل، وبضعة مقاهٍ وأكشاك صغيرة انتشرت في المكان جنبا إلى جنب مع متاجر متعددة البضائع، ومبانٍ رفع عليها العلم الفلسطيني، الكنيسة تأخذ مساحة كبيرة في الصورة.

ثمة نخلتان تطاولان بناء الكنيسة، وبضع شجيرات توزعت في الأنحاء لتكمل جمالية المكان، وتضفي عليه قدسية، تهتز لها الأبدان.

واجهة الكنيسة مدعمة بعدة عقود معمارية، يتضح أنها بنيت في فترات زمنية متباعدة، ولها ثلاثة أبواب بالإمكان ملاحظة أن آثارها تعود إلى حقب مختلفة، وقد بقي منها باب واحد أضحى بدوره بالغ الصغر، وهو عبارة عن مدخل ضيّق منخفض، وفوق المدخل نلاحظ أسلوب الزخرفة البيزنطية والأقواس الصليبية.

حال دخولنا من الباب الصغير، كان علينا الانحناء، تخيلتها في تلك اللحظة انحناءة الخضوع والاستسلام لقدسية المكان، قادنا المدخل الضيق إلى دهليز مظلم بسبب إغلاق جميع نوافذ الواجهة، ثم باب خشبي نحته فنانون أرمنيون قبل ثمانية عقود تقريبا، يؤدّي بنا إلى البازيليك، وإلى اليسار باب صغير يفضي إلى أروقة القديس هيرونيموس فكنيسة القديسة كاترينا.

تنقسم البازيليك إلى خمسة أروقة تفصل بينها أربع مجموعات من الأعمدة الحمراء ما زالت تظهر عليها آثار الرسومات القديمة، أما السقف

فهو عبارة عن ألواح من الخشب المكشوف يعود تاريخها إلى القرن السادس عشر الميلادي وقد تم ترميمه في القرن الماضي.

لم يبق من الموزاييك الذي كان يغطي الجدران سوى آثار قليلة، أما السقف فقد بان عليه التأثر بفعل تسرب المياه، التي ألحقت بدورها ضررا كبيرا بفسيفساء الكنيسة، وغيرها من الأغراض التي لا تقدر بثمن.

كان فريق من الخبراء قد بدأ مهامه في مشروع ترميم الكنيسة، عرفنا منهم أنها المرة الأولى منذ حوالي 200 سنة، وتشمل سقف المبنى وحوالي 04 نافذة، كانت أعمال البناء تجري دون إعاقة دخول الزوار إلى الكنيسة.

قال لنا المهندس جمال الأعرج مهندس مشروع ترميم الكنيسة، وهو بالمناسبة فلسطيني الجنسية: إن المرحلة الأولى من الإصلاح ستستغرق سنة تقريبا، وسيتم إصلاح السقف والنوافذ، كما سيتم ترميم الجص والفسيفساء وخشب الجدران، بالإضافة إلى إصلاح الواجهة الخارجية للكنيسة.

وقفنا عند جانبي الهيكل الرئيسي في صدر البازيليك، لالتقاط صورة تذكارية، اتسعت فيما بعد لتشمل كل الموجودين، الذين انضموا إلينا إعجابا بزينا العماني، الذي بدا مدهشا بالنسبة لهم.. كانت ابتسامتنا تتوحد في المكان وكأننا نعرف بعضنا منذ أمد بعيد.. علَّق عنها أحد القساوسة بأنها سكينة السيد المسيح تتغشانا في هذه اللحظة.

تحت مستوى الأرضية التي تعود إلى الحقبة الجوستنيانية أمكننا مشاهدة فسيفساء قسطنطين وهي عبارة عن أشكال هندسية، قبل أن نلج من المدخل

الجانبي الذي يؤدي إلى مغارة الميلاد، وهي عبارة عن شكل قائم الزاوية تغطيه الأقمشة الاسبستية الحريرية الناعمة لحمايتها من الحرائق.

تحت الهيكل الرئيسي كانت هناك نجمة فضية تشير إلى موضع ميلاد المسيح حسب العقائد المسيحية وعليها عبارة باللاتينية تقول: «هنا ولد يسوع المسيح من مريم العذراء»، وعلى يمين الهيكل الرئيسي كانت هناك المغارة التي تُدعى «مغارة المجوس» حيث كان المذود الذي وضع فيه الطفل يسوع.

كنا نتنقل بين المكانين، ونلتقط الصورة تلو الأخرى، فرادى وجماعات، فيما طوابير الزائرين للمكان تمتد قريبا منا، وقد تم إيقاف دخولهم حتى فرغنا من الزيارة.. استعجلت الرفاق للخروج، فأمامنا برنامج زيارة طويل، لم يكتمل بعد.. حين فراغنا من زيارة الهيكل، رأيت مجموعة من رجال الدين المسيحيين من الكهنة والقساوسة والمؤمنين بالمسيح من أرجاء العالم، الذين يحجون إلى هذا المكان، للتبرك بمسقط رأس المسيح، وهم يقبلون مغارة المجوس، بعدما يخلعون القلادة عن رقابهم، ويجثون على ركبهم، ثم يرسمون إشارة الصليب، ويغادرون المكان.

***

ونحن نتجول داخل كنيسة المهد، وقد عرفنا بأمر حصارها البغيض من قبل قوات الاحتلال، هذا الحصار الذي دام أربعين يوما، وكان يهدف حسب المزاعم الإسرائيلية، إلى القبض على مطلوبين لديهم، بسبب دورهم في الهجوم على قوات الاحتلال.

التقينا في داخل الكنيسة، بأحد الذين تم حصارهم، كان يروي لنا

الحادثة بشيء من الألم، على الأيام العصيبة التي قضوها تحت الحصار.. تبدأ حكايته في اليوم الثاني من شهر ابريل عام 2002م، حينما اجتاحت قوات الاحتلال الإسرائيلي مدينة بيت لحم مهد المسيح عليه السلام، وحاصرت كنيسة المهد لمدة 39 يومًا لم تقرع فيها أجراس الكنيسة لأول مرة في تاريخها، وحرم السكان من أداء صلاة الأحد في سابقة خطيرة لم تعهدها الكنيسة من قبل، ولم تقف القوات الإسرائيلية عند حد حصارها للكنيسة بل أخذت تمطر الكنيسة بقذائف الدبابات ورصاص المدافع الرشاشة ما أدى إلى تدمير وحرق أجزاء كبيرة من مبانيها ومحتوياتها، ولتوقع العديد من الشهداء والجرحى ممن لجأوا إلى الكنيسة أملًا في النجاة من النيران الإسرائيلية التي لاحقت كل ما هو متحرك في مدينة بيت لحم في سلوك يتنافى مع كل الأعراف والمواثيق والقوانين الدولية واستهتارًا بكل القيم والمعايير الإنسانية.

وقد سجلت عملية حصار بيت لحم وكنيسة المهد إحدى المآسي التي يتعرض لها الشعب الفلسطيني على يد جيش الاحتلال الإسرائيلي يوميًا، فقد استخدمت القوات الإسرائيلية الطائرات والدبابات بشكل كثيف وقامت المروحيات الإسرائيلية بقصف عشوائي تركز في محيط البلدة القديمة ومنطقة السوق في المدينة وتلا ذلك تقدم للدبابات والمدرعات والمشاة إلى قلب المدينة تحت وابل كثيف من النيران من جميع أنواع الأسلحة وفي جميع الاتجاهات، فلم يجد الكثير من المواطنين والمقاومين المدافعين عن مدينتهم أمام هذا الهجوم الشرس للجيش الإسرائيلي، ملجأ لهم غير كنيسة المهد آملين أن يكون هذا المكان المقدس ملاذاً آمنا، يحتمون به من

بطش الآلة العسكرية الإسرائيلية، ولكن الأيام اللاحقة أثبتت للعالم أجمع أن إسرائيل دولة لا تحترم الديانات ولا المقدسات ولا الاتفاقيات الدولية أو المعاهدات الإنسانية التي أقرها المجتمع الدولي للحفاظ على حقوق المدنيين الذين يرزحون تحت الاحتلال.

ومن هنا بدأت أزمة كنيسة المهد فقد حاصر الجيش الإسرائيلي محيط الكنيسة بمئات الدبابات وآلاف الجنود وقام بنصب أبراج عالية حول الكنيسة وإحضار معدات صوتية وكاميرات تصوير للمراقبة، وأجهزة تشويش الخ.. من المعدات التي تم استعمالها لاحقًا.

وبالإضافة إلى حصار الكنيسة التي كان بداخلها ما يقارب 200 شخص من بينهم رجال دين ومواطنون وبعض الأفراد من أجهزة الأمن الفلسطيني، فإن قوات الاحتلال أحكمت اتكرارلطوق على محافظة بيت لحم بأكملها، حيث أصبح نحو 150 ألف نسمة تحت الحصار الخانق للجيش الإسرائيلي، ومنذ اليوم الأول للحصار بدأت القوات الإسرائيلية في تضييق الخناق على المحَاصَرِين مطالبة إياهم بتسليم أنفسهم زاعمة وجود عدد من المطلوبين للقوات الإسرائيلية بين المحَاصَرِين، وقد لجأ الجيش الإسرائيلي لكافة الأساليب والوسائل التي تتنافى مع كل الأعراف والمواثيق الدولية واتفاقيات حقوق الإنسان، في محاولة لكسر شوكة المحاصرين وإرغامهم على الاستسلام ومن ثم اعتقالهم، وبناءً على ذلك قام الجيش الإسرائيلي منذ اليوم الأول للحصار بقطع إمدادات الماء والكهرباء، ومنع دخول المواد الطبية والأدوية والمواد الغذائية، وكان المحَاصَرِون يتزودون بالماء من بئر في ساحة الكنيسة رغم المخاطرة بالخروج إلى الساحة إضافة إلى أن مياه هذه البئر

لم تكن صالحة للشرب، واضطر المحاصرون نتيجة النقص الحاد في المواد الغذائية، لتحضير بعض الطعام من الأعشاب وأوراق الشجر.

وقد اصطدمت جميع المحاولات واللجان التي شكلت خلال فترة الحصار بالتعنت الإسرائيلي وإصرار الحكومة الإسرائيلية على تسليم المحاصرين لأنفسهم وتقديمهم للمحاكمة أو نفيهم للخارج، وأمام هذا الصمت الدولي والعربي على ما جرى في كنيسة المهد، والموقف الأمريكي المتطابق مع الموقف الإسرائيلي. كانت أزمة الكنيسة تزداد تدهورًا، فيما كان وضع مدينة بيت لحم ينذر بحدوث كارثة نتيجة الحصار المفروض على 150 ألف نسمة، وهو ما دفع القيادة الفلسطينية وبمساعدة أوروبية وأمريكية إلى إبرام اتفاق مع الحكومة الإسرائيلية ينهي أزمة الكنيسة ويرفع الحصار عن محافظة بيت لحم بكاملها وتتعهد إسرائيل بموجبه بعدم اقتحام الكنيسة أو اعتقال أي شخص من المحاصرين وبناءً على هذا الاتفاق تم إبعاد 13 شخصًا إلى خارج الوطن وترحيل 26 آخرين إلى غزة كما تم الإفراج عن حوالي 84 شخصًا.

***

في القاعة التي تحتضن طقوس عيد الميلاد في كنيسة المهد، والتي تقام في يوم 52 ديسمبر من كل عام، بالنسبة للطوائف الكاثوليكية والبروتستانتية، أخذنا مكاننا داخل القاعة ونحن نتعرف على جدول صلوات الطوائف المختلفة (الروم، اللاتين والأرمن) الذي وضع في الفترة العثمانية وما زال يعمل به حتى يومنا هذا.

كان الوقت قد اقترب من المغيب، حين رحنا نتناوب على التصوير في باحة كنيسة القديسة كترينا، قبالة تمثال القديس جيروم.

في تلك اللحظة كان صوت الأذان القادم من المسجد العمري، يشنف آذاننا، فخرجنا من بوابة كنيسة القديسة كترينا، لنجد أنفسنا في الطريق إلى المسجد، هناك التأمنا صفا واحدا خلف عبدالعزيز الجهضمي لنصلي معه المغرب والعشاء، قرأ عبدالعزيز علينا بصوته الشجي مستلهما روح المكان الذي نحن فيه من سورة مريم، ما يشنف الآذان ويطرب الفؤاد، (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذْ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا).

وقبل أن نركب الحافلة، كان صوت حمود الطوقي يناديني ليقاسمني بعض الفلافل التي قدمه له صاحب مقهى صغير على ناصية المسجد، كانت قطعة الفلافل من أجمل الفلافل التي أكلتها.. فهي تحمل طعم كرم وإحسان أهل بيت لحم، هؤلاء الذين غادرناهم في تلك اللحظة مستقين من روحهم العزة والشموخ.

توقفنا برهة في الطريق، بانتظار مغادرة المستعمرين الذين قطعوا الطريق الواصل إلى بيت لحم، وراحوا يرمون المركبات العابرة بالحجارة ويضرمون فيها النار، أمام انظار قوات الاحتلال التي تتعمد عدم التدخل السريع في مثل هذه الحالات.

بعدها كنا نعبر وادي النار، في طريقنا إلى رام الله.. كان الطريق هادئا إلى حد ما، وكان التعب قد أخذ مبلغه منا، فيما الجندي الإسرائيلي يفرك

بندقيته، ويتأهب لصيد آخر، كنا نحلق دون أن نأبه لوجوده، دون خوف من بندقيته، ودون وجل من نظرته الحانقة.. كنا نغني ونضحك، والجندي الإسرائيلي ما زال يحرس الحاجز..

يا سيّد الخيل، ماذا تريد

من الذّاهبين إلى شجر اللّيل؟

عاليةٌ روحنا، والمراعي مقدّسةٌ، والنّجوم

كلامٌ يضئ... إذا أنت حدّقت فيها قرأت حكايتنا كلّها:

ولدنا هنا بين ماءٍ ونارٍ... ونولد ثانيةً في الغيوم

على حافّة السّاحل اللاّزورديّ بعد القيامة... عمّا قليل

فلا تقتل العشب أكثر، للعشب روحٌ يدافع فينا

عن الرّوح في الأرض

يا سيّد الخيل! علّم حصانك أن يعتذر

لروح الطّبيعة عمّا صنعت بأشجارنا.

في زمان الحنين المعلّب

ككل الصباحات في رام الله..

نلتقي على مائدة الإفطار.. نسأل عن الأخبار، وننبش في الذكريات الجميلة التي تتشكل يوما بعد آخر في هذه البلاد، نقلب الصحف الصادرة في رام الله، نتتبع أخبارنا، ونبحث عن صورنا الساكنة في عدسات الزملاء، ونتبادل ضحكة على موقف مررنا به، أو حكاية ولدت هنا أو هناك.

في الحافلة، نتأكد من عددنا..

يهمنا ألا يتأخر أحد عن البرنامج، نسأل مرافقينا، عن وجهتنا القادمة، ثم تتوالى الأسئلة عما سيحدث هناك، ومن سنقابل.. ومتى.. وكيف...

تمضي الحافلة، ووجه رام الله يصحبنا حتى الحاجز الذي ننعطف منه إلى وجهتنا القادمة، وذات الحكاية مع الجندي الإسرائيلي الذي بدا وكأنه تآلف معنا، حد أنه لم يأبه بتفتيش قسمات وجوهنا، والنظر إلينا فردا فردا، يكتفي برؤية ورقة صغيرة يرفعها سائق الحافلة، ثم يشير لنا بالتحرك.

كانت اللافتات التي تخبر عن أسماء المدن والمستعمرات واتجاهها تثير انتباهنا، فعلى الطريق رقم (60) أحد طرق الضفة الغربية، والذي يربط ما بين مدينة بئر السبع جنوبا حتى مدينة الناصرة، تسكن العديد من المستعمرات، التي تترابط بعضها ببعض على هذا الطريق، وتطوق المدن والقرى الفلسطينية، وتحبسها داخل زنزانتها الكبرى.

ولكون الطريق رقم (60) يمر بمعظم مناطق الضفة الغربية كالخليل وبيت لحم والقدس وجنين، فقد كان علينا المرور عليه بشكل دائم، كلما غادرنا رام الله إلى مدينة أخرى..

كانت الأسماء العبرية للمدن المحتلة لافتة لنا، نطلب من السائق التمهل وهو يحاذي لافتات المدن، فيطلق حمدان البادي عدسته نحوها، وكذلك يفعل مصطفى أحمد، ومن الاتجاه الآخر يفعل مثلهما عاصم الشيدي وحمود الطوقي، وأسمع عزيزة راشد تستعين بعبدالعزيز ليصور لها المشهد، وحده حاتم الطائي من يسترخي في آخر الحافلة وهو يتأمل المشهد الماثل أمامه، وكأنه يتأهب لتصوير فيلم سينمائي قصير، تحوم فكرته على مد بصره..

في مقدمة الحافلة يدور نقاش خافت بين عوض باقوير وسالم الجهوري، ويشترك فيه مرافقونا هشام واصف وأسد شجاع ومحمد سطيح، وغير ذلك تبدو الحافلة هادئة في مسارها، قبل أن يحتدم الجدال بين حمود الطوقي ومصطفى أحمد، يختمها الأخير بكلمة استنكارية، تثير المرح في الحافلة..

نقرأ أورشليم.. وبين قوسين القدس، ومعها مستعمرة بيت أيل، وعيلي ومفرق تبواح..

أورشليم! التي عصرت كل أسمائها

في دمي...

خدعتني اللغات التي خدعتني

لن أُسمّيكِ

إني أذوب، وإنَّ المسافات أقربْ

وإمامُ المغنّين صكَّ سلاحًا ليقتلني

في زمان الحنين المعلّب

والمزامير صارت حجارهْ

رجموني بها

وأعادوا اغتيالي

قرب بيّارة البرتقالِ...

***

كان الطريق يأخذنا إلى مدينة الخليل.. مهد أبي الأنبياء خليل الرحمن، إبراهيم عليه السلام..

كان الشوق يسبقنا إلى المدينة، حيث تهفو النفس للصلاة في المسجد الإبراهيمي.. والتضرع إلى الله في بقعة فلسطينية مقدسة، والدعاء لها بالخلاص من براثن الاحتلال..

طال المسير قليلا.. بسبب الالتفاف حول الطرق الممنوعة كي نسلك الطرق المسموح لنا العبور فيها..

انضمت إلينا رضا خضر ممثلة الهيئة العمانية للأعمال الخيرية في الضفة الغربية، التي قادتنا في البدء للتعرف على المشاريع التي تنفذها الهيئة

في ربوع الوطن الفلسطيني، وماهيتها، حدثتنا عن المدارس والمجمعات الصحية، وعن المساهمة العمانية في مساعدة الجامعات الفلسطينية على التوسع، واستيعاب الطلب المتنامي عليها، والإعانات التي تقدم للجمعيات والأفراد.. وعن أشياء كثيرة، وقالت إن ذلك يسهم في تعزيز صمود الشعب الفلسطيني، والتخفيف من معاناة الانتقال وعبور الحواجز، للوصول إلى أقرب مدرسة أو مستوصف.

أخبرتنا رضا عن أرقام المساعدات العمانية.. وعن نصيب الخليل منها، وكنا بعدها نسلك الطريق الواصل إلى بلدة صوريف إلى الشمال الغربي من مدينة الخليل، تتقدمنا سيارتان ترفعان العلمَيْن العُماني والفلسطيني احتفاءً بوصولنا، فيما انضم إلى حافلتنا مسئول من بلدية الخليل، الذي راح يخبرنا عن انتهاكات الاحتلال وعن القتل والتشريد ومصادرة الأراضي.. وعن حرق أشجار الزيتون.. وقطع الطرق، وعن مضايقات عديدة يتعرض لها أهالي المدينة..

من على سطح عيادة مسقط في صوريف وفوق رقعة جبلية ترتفع 600م عن سطح البحر، شاهدت امتداد البلدة والقرى المحاذية لها، وتتبعت جهة الحرم الإبراهيمي، قريبا من المكان، وفي منطقة جبلية أكثر ارتفاعا، تبدت لنا بقايا مستعمرة أقامها الاحتلال، بعد حيازة عدد ضئيل من المستعمرين للمكان، قبل أن يضطروا لمغادرته، بعد أن انقلبت عليهم المضايقات التي كانوا يمارسونها بحق الفلسطينيين..

كنا نحتضن النسيم البارد الذي يهب علينا، ونحن في بقعة مرتفعة، تطل على واحات الزيتون الممتدة، وعلى أشجار العنب والتين واللوز، وعلى منازل الفلسطينيين التي بدأت تقوم من تحت الأنقاض، والتعمير يأخذ مجراه من رصف الطرق، ومد خطوط الماء والكهرباء، وتنفيذ المشاريع التعليمية والصحية..

أطللت بفرح على المكان.. سألت مجددا عن اتجاه الحرم الإبراهيمي، أنظر ناحيته.. أتأمل البقعة الساكن فيها، تحلق الروح كيمامة نحوه..

تودّ العين.. لو طارت إليك

كما يطير النوم من سجني

يود القلب لو يحبو إليك

على حصى الحزن.

***

لا يمكن أن تكتب عن الخليل، دون أن تقذف بصرك في كل الجهات، دون أن تتأمل الخرب التي أقامها الاستيطان، ودون أن تسمع حكاية نبع الماء الذي سرقه الأعداء بعد احتلالهم المدينة، وحرموا منه السكان، لا يمكن أن تقول شيئا في حضرة مدينة أبي الأنبياء، وأنت محروم من الدخول إلى عتباتها المقدسة، والصلاة في المسجد الإبراهيمي، ودون أن يكون لك الحق في التجوال داخل المدينة القديمة، أو أن تشرب عصير الرمان في سوق الحرم.. ودون أن تكون ذاتك الحرة تحلق حيثما تشاء وكيفما تشاء.

تكتب عن الخليل وتستقرئ التاريخ المكتوب على دروبها، وتستنطق أشجار الزيتون، والعابرين في طرقاتها، المكلومين بالجراح، الساهرين على الأنين، المثقلين بوجع الأيام، الباحثين عن طائر يحلق في سمائهم، وعن سلام يمشي على أرضهم، عن الوجع المكبوت في الصدور، عن الابتسامة الشاحبة، والأيام الثقال التي تمر عليهم، وعن العلم الفلسطيني الذي أُنزِل من ديارهم، ومنع من التداول، وعن النجمة التي تتربع بين لونين..

وطني! أُفتِّش عنك فيك فلا أرى

إلاّ شقوق يديك فوق جباهِ

وطني أتفتحُ في الخرائب كوة؟

فالملح ذاب على يدي وشفاهي

مطر على الإسفلتِ, يجرفني إلى

ميناءِ موتانا.. وجرحُك ناهِ.

***

لا أعرف ما دلالة الأسماء التي تقودنا إلى المدن الجميلة في فلسطين، فطريق وادي النار هو من أخذنا إلى بيت لحم، واليوم يأخذنا طريق وادي جهنم إلى مدينة الخليل، والطريقان لا يختلفان عن بعضهما البعض، مع اختلاف المشاهد الماثلة أمامنا.

تعرجات وانكسارات عدة، تميل بنا الحافلة يسارا ويمينا، ثم تصعد حينا وتهبط حينا آخر، وأرواحنا تحلق على وقع حديث عن المنطقة الأكثر التهابا، والمستعمرات تحتم علينا الالتفاف والدوران، حتى إذا ما بلغنا مشارف الخليل، اصطدمت أبصارنا بمستعمرة «كريات أربع»، أول وأضخم مستعمرة يهودية، وهي تطوق المدينة وتحاصرها جغرافيا وسكانيا.

يرجع تاريخ كريات أربع إلى العام الذي تلا نكسة 1967 مباشرة، حيث طلب مجموعة من الإسرائيليين وعلى رأسهم المتطرف موشيه لفينجر من الجيش الإسرائيلي أن يأذن لهم بقضاء عطلة عيد الفصح في فندق بارك بالخليل، وبقيت المجموعة في الفندق بعد الأعياد وحصلت على دعم عدد من السياسيين الإسرائيليين.

وبعد عدة أشهر تم التوصل إلى حل وسط بين مجموعة لفينجر والسلطات الإسرائيلية، منحت بموجبها المجموعة قطعة أرض شرق مدينة الخليل تمت مصادرتها من قبل الاحتلال، وبدأوا بإنشاء المستعمرة، التي تجاوز عدد سكانها الآن سبعة آلاف نسمة.

وقد أدى بناء هذه المستعمرة إلى تدمير عشرات المنازل الفلسطينية وتهجير أهلها ومصادرة أراضيهم، إضافة إلى اضطرار السكان إلى ترك بيوتهم بسبب الاعتداءات والمضايقات غير المنتهية من المستعمرين المتطرفين.

ندخل الخليل.. متوجسين، خائفين أن نعود من حيث أتينا، هي الحكاية ذاتها تتناسخ في المدن الفلسطينية المحتلة، تعبر الحواجز، ونقاط التفتيش، تنتظر إذن المرور، وكأنك تتوسل العبور إلى أرضك وديارك، ثم تمضي في

طريقٍ ملتوٍ، وتتباعد المسافة الواصلة بينك وبين مقصدك، ثم إشارة من عسكري لم يبلغ العقد الثاني برتبة عريف أو أدنى من ذلك، تعيدك من حيث أتيت.

نتبع السيارتين اللتين احتفتا بوصولنا، نتوقف معهما في نقطة تالية، نترجل من الحافلة، يخبرنا مسئول البلدية، أننا سنعرج بدءا على لجنة إعمار الخليل، في البلدة القديمة، للتعرف على أهداف واستراتيجية اللجنة، ودورها في إعادة وتأهيل وإعمار المباني التاريخية.

في غرفة متوسطة ضمن مبنى يحمل اسم «لجنة إعمار الخليل»، أخذنا موقعنا، شاهدنا فيلما عن المدينة، وعن تاريخها، وعن احتلالها، وخطة سلطات الاحتلال والجماعات الاستيطانية المتطرفة لتنفيذ خطة ممنهجة لتهويد البلدة القديمة، والسيطرة عليها من خلال إنشاء خمس بؤر استيطانية لتحويل البلدة القديمة إلى حي استيطاني كبير، وتأمين الحماية الكاملة للمستوطنين المتطرفين، والإجراءات التعسفية الممارسة بحق سكان البلدة، كفرض حظر التجول لفترات زمنية طويلة، وإغلاق المداخل المؤدية إليها، وإغلاق المناطق والمحلات التجارية والسيطرة على ممتلكات المواطنين ومصادرة أراضيهم، بالإضافة للاعتداء على السكان وإرهابهم من قبل جيش الاحتلال والمستوطنين لتهجيرهم.

سيمتدُّ هذا الحصار ليقنعنا باختيار عبوديّة لا تضرّ، ولكن بحريَّة كاملة!!.

***

في الطريق الذي سلكناه إلى الحرم الإبراهيمي، مررنا بدروب البلدة القديمة، كان علينا أن نلتف حول المكان، حيث يمنع على العرب الدخول في المناطق التي احتلتها إسرائيل بالكامل، وأقامت عليها مستعمراتها، يخبرنا مرافقونا، أن المدينة هنا وحدها تحتوي على خمسة مواقع استيطانية يهودية وهي مستعمرة تل الرميده، والدبويا، ومدرسة أسامة بن المنقذ وسوق الخضار والاستراحة السياحية قرب المسجد الإبراهيمي الشريف، بالإضافة إلى التجمع الاستعماري اليهودي على حدود المدينة الشرقية المتمثل في كريات أربع وخارسينا.

يقول محدثنا: إن الخليل هي المدينة الفلسطينية الوحيدة التي اقيمت في قلبها مستعمرة، إنها تمنح المستعمرين حرية الحركة والتنقل على حسابنا، تضيق بنا دروبنا، وتهدم منازلنا، وتقطع طرقاتنا، من أجل حماية شرذمة من المستعمرين..

يا شارع الأضواء! ما لون السماء

وعلام يرقص هؤلاء؟

من أين أعبر، والصدور على الصدور

والساق فوق الساق. ما جدوى بكائي

أي عاصفة يفتنها البكاء؟.

نصل إلى البوابات الحديدية، التي تنظم دخولنا واحدا تلو الآخر، يتم تفتيشنا، يرمقنا العسكري بريبة، يبحث في سحناتنا عن وجوه مألوفة له،

يحاول أن يقرأ في قسماتنا، لماذا نحن هنا، يسأل في قرارة نفسه عن جنسيتنا، وهو الذي لم يبرح ثكنته العسكرية إلا إلى داره المغتصبة من أهلها، يهمس بعربية مكسرة لأحد مرافقينا سائلاً اياه عمن نكون.. ثم يعيد النظر إلينا، نتجمع قريبا من السلم الصاعد إلى المسجد الإبراهيمي، ثمة بوابة أكبر هناك، وحراسة أكثر، يسألنا العسكري الإسرائيلي الآخر، عمن نكون، ولماذا نحن هنا، ثم يقول إنه ليس لديه أوامر بإدخالنا إلى المسجد، نحاول التفاهم معه، ثم يجري اتصالا هاتفيا، ويرطن بلغته العبرية، وبعدها، يسمح لنا بالصعود إلى المسجد.

كل ذلك حدث، والطريق إلى الحرم الإبراهيمي ليست مقطوعة، والبوابات ليست موصدة، والزيارة مفتوحة، وسلطات الاحتلال رفعت الحظر الذي كان على المسجد قبل بضع ساعات، وكل ذلك حدث مع وفد رسمي، يملك تراخيص مرور، ولا أعتقد أن سلطات الاحتلال، غائبة عنا، ولا تعرف عن أمرنا شيئا.. ولكنها العنجهية الإسرائيلية التي استباحت المقدسات، واغتصبت الأرض، وهدمت المنازل، وسجنت الأبرياء، العنجهية التي يرفع بها جنود صغار أياديهم في وجوهنا، ويمنعوننا من التحرك إلا بأمر منهم وموافقة من قبلهم.

أتحرر من أغلالي في تلك اللحظة.. بيني وبين المسجد الإبراهيمي الشريف بضع خطوات، أكاد حينها ألمس جدرانه، بل إنني أقف على أرضه وترابه، فما الذي يحول بيني وبينه، غير هذا العسكري، الذي يمارس سطوته كما يريد علينا.. ثم أعطانا جواز المرور..

يا دامي العينين والكفين

إن الليل زائل

لا غرفة التوقيف باقية

ولا زرد السلاسل

نيرون مات ولم تمت روما

بعينيها تقاتل

وحبوب سنبلة تجف

ستملأ الوادي سنابل..!.

تُنسى، كأنك لم تكن

ينظر اليَّ الحرم الإبراهيمي..

تسكنني الرهبة من القرب منه..

وتغشاني السكينة، وأنا أصعد السلم الواصل إليه، أمرر كفي على جداره، تتدحرج أصابعي في حجارة بنيانه المرصوص.. أتوقف برهة، أنظر إلى الخلف، أرى الرفاق يصعدون الدرج والبهجة تملؤهم، وخلفهم أرى جنود الاحتلال وهم يمارسون عملهم المعتاد على بوابته.. تفتيش واستجواب، ورفض دخول هذا والسماح لذاك..

تنفتح أمامي بوابة الحرم الإبراهيمي الشريف، أدخل الصرح، أشتم أنفاسه، وأمتلئ بعبقه، وأبدأ التجوال في أروقته، والسكينة تغشاني، أنا الذي رأيت القلب يسجد في محرابه، وسمعت ابتهالات الروح، ومناجاتها تحت منبره، وسكنت جوارحي، وابتلت عيناي بالدموع، وجبهتي تلامس أرض المصلى..

أتشبث بسجادة الصلاة، أسمع مناجاتي، وددت لو ساحت دموعي أكثر، وأنا أرفع كفّيَّ بالدعاء، ثم أقربهما من وجهي، وأغطي عيني، ثم أنكس الرأس، وأبحث عن الكلمات التي أتقرب بها، فأجدها تهرب مني، كشريدة فلت زمامها، أحاول أن أنطق بالتسبيح والاستغفار، أجد بصري يتقلب في المصلى، ويرتد إليّ، ثم يعود إلى زاوية أخرى، وهكذا..

أنسى الرفاق الذين حولي.. أنسى الجندي الإسرائيلي الذي يرابط قرب بوابة الحرم، وأنسى بوابات حراسته، وبندقيته، وفورة غضبه، وأنسى.. أنسى كأني لم أكن شيئا مذكورا..

***

تاريخ المسجد الإبراهيمي، يشير إلى أنه يعتبر رابع أهم مسجد إسلامي بعد الحرم المكي الشريف والمسجد النبوي والمسجد الأقصى، ويضم أضرحة الأنبياء، إبراهيم واسحاق ويعقوب عليهم السلام وزوجاتهم سارة ورفقة ولائقة وإيليا على التوالي عليهن السلام مدفونات فى مغارة (المكفيلا) التي يقوم عليها الحرم الشريف.

وتذكر بعض الروايات أن آدم ونوح ويوسف وسام مدفونون أيضا فى نفس المغارة، وقد بني المسجد على أساس مغارة تعود إلى قدم التاريخ، فقد بنى سيدنا سليمان عليه السلام سورا مستطيلا دون أن يجعل له بابا بقصد حفظ قبور الأنبياء، وبنى الرومان على هذه المغارة كنيسة، هدمت على يد الفرس بعد أقل من 001 عام.

في العصر الأموي تم بناء سقف وقباب للمسجد، وفي العصر العباسي تم فتح باب من الجهة الشرقية، أما الفاطميون ففرشوه بالسجاد، وفي فترة الحملات الصليبية، تحول الحرم إلى كنيسة ثانية عام 1172م، ولكنها عادت إلى جامع ـ بعد دخول صلاح الدين الأيوبي ـ بعد معركة حطين.

وللحرم الإبراهيمي حاليا ثلاثة مداخل الأول يقع في الجنوب الشرقي للمسجد وهو الباب الرئيسي، يسلك داخله طريقا فيه درج ثم ينعطف إلى

اليسار مارا تحت قنطرة ثم يصعد سبع درجات، وكان له درج طويل يبدأ من الركن الجنوبي الغربي للحصن بدرجات هي عبارة عن أنصاف دوائر إلا أن هذا الدرج والباب الرئيسي نسفهما اليهود في 11 أكتوبر 1968م. والثاني يقع في الشمال الغربي، والثالث يقع قرب الميضأة الغربية قبل بداية درج الباب الثاني، وقد أنشئ له حديثا سلم بارز متعرج للوصول إلى المدرسة المنسوبة للسلطان حسن وتم تحويل أحد شبابيكها إلى باب، وهذا يتنافى وروعة وضخامة البناء ولا يتناسب مع طراز المبنى من ناحية الفن المعماري الإسلامي، إلا أن هذا المدخل له أهميته خاصة عند ازدحام المصلين بعد الصلاة أيام الجمع، وتستخدمه النساء أيام الجمع أيضا.

وللمسجد مئذنتان قائمتان على السور الأولى من جهة الجنوب الشرقي، والثانية من جهة الشمال الغربي وهما مربعتا الشكل ترتفع كل واحدة منهما 51 مترا فوق السطح.

***

أسجد ثانية.. تغرورق عيناي بالدمع، يرتد لي الزمان الذي أبكاني في تلك اللحظة، أجدني بعيدا عن الرفاق الذين دخلوا معي المسجد، وأنسلخ من ذاتي، وأجدني مع جموع المصلين، نقف صفوفا متراصين كالبنيان، ذات فجر جمعة رمضان، أركع مع الراكعين، وأسجد معهم، أسمع صوت تسبيحهم وتحميدهم، جباهنا تعانق السجاد، وصوت الإمام يرتج في المصلى، الله أكبر، فتدوي في المكان، تزلزل القلوب وتقشعر لها الأبدان، ثم الله أكبر ثانية، وتعود جباهنا لتقبيل وجه الأرض، وكأنها لم تلتق منذ أمد بعيد..

أشعر بالدماء التي تنفر من أجساد المصلين، وهم سجود لله، وأرى أرواحهم وهي تحلق إلى باريها، وتلوذ برحمته، يضج المكان بالبكاء، على الركع السجود، ويبكي المحراب، والمنبر، وتبكي مقامات الأنبياء، وتضج المغارة الشريفة بالدمع.. وصوت الرصاص يخترق الأجساد، ثم أسمع الإمام يكبر.. فأكبر معه.

خمسون مصليا صعدت أرواحهم في لحظة غدر، قام بها مجرم حمل في صدره كل ظلام الحقد التوراتي، دخل على المصلين فجر يوم الجمعة 2 فبراير 1994م، فأفرغ فيهم رصاصات حقده وغدره.. قبل أن يرتد له الكيد ويسقط صريعا..

خمسون مصليا قضوا نحبهم، لم يكن لهم أي جرم، سوى أن قالوا ربنا الله، ودخلوا المسجد آمنين، لكن الاحتلال شيمته الخداع والغدر، فقد فتح الأبواب ليدخل من امتلأ قلبه بالحقد على الإسلام والمسلمين، فكانت المجزرة التي بكت لها السماء والأرض.

أعود للرفاق.. أجدهم في صلاتهم يتبتلون..

ربما كانوا مثلي في ذات الزمان الذي كنت أنا فيه..

مثلي هم يبكون، أرواح الشهداء التي صعدت من هذا المكان، ذات غدر.. دون أن يكون لهم رد الأمر..

أشعر أن الجندي الإسرائيلي الواقف في حراسة الحرم الإبراهيمي، والحراسة هنا ليست للحرم، وليست لنا، بل للمستعمرين واليهود الذين

يدخلون المسجد، كما شاءوا بعدما استباحوا حرماته، هؤلاء الذين يقدسون قبر مجرم قاتل، أكثر مما يقدسون قبور أنبيائهم، ويؤدون لضريحه التحية العسكرية.

تقول باقي الحكاية، إن المجرم غولدشتاين لم يرتكب وحده مجزرة الحرم الإبراهيمي، بل شاركه فيها جنود العصابات الصهيونية الذين أغلقوا باب المسجد حتى لا يتمكن المصلون من مغادرته ومنعوا كذلك سيارات الإسعاف الاقتراب من المنطقة، وحين حاول المواطنون نجدة المصلين قابلهم جنود يهود بإطلاق الرصاص الكثيف مما أوقع على الفور (29 شهيدًا) وعشرات الجرحى.

يا أيها المتفرَّجون! تناثروا في الصمت

وابتعدوا قليلًا عنه كي تجدوهُ فيكم

حنطةً ويدين عاريتين

وابتعدوا قليلًا عنه كي يتلو وصيَّتَهُ

على الموتى إذا ماتوا

وكي يرمي ملامحَهُ

على الأحياء إن عاشوا..!.

***

بعد الصلاة يتناثر الرفاق حول معالم المسجد وقبابه..

يقرأون عن التاريخ المتناثر خلف كل معلم، وناصية.. يستمعون إلى شرح عن المنبر الفاطمي، وعن مقام إبراهيم الخليل الذي استحوذ الإسرائيليون عليه من الجانب الأيمن، وأبقوا شرفتين للمسلمين ليروا المقام ويقرأوا الفاتحة عنده، وعن القباب المبنية على الأضرحة، وعن الغار الشريف الذي يحوي بداخله قبور الكثير من أنبياء الله..

يخبرنا مرافقنا عن صلاح الدين الأيوبي، الذي أعاد للمسجد مكانته، بعدما تحول إلى كنيسة، وعن نقله للمنبر الفاطمي إلى مكانه الحالي، وعن تماثل هذا المنبر مع منبر صلاح الدين في المسجد الأقصى، كنا نصعد الواحد تلو الآخر درجات المنبر، ونقف بشموخ وكبرياء، رغم انكسار الذات، ووهن الجسم من هول الأحداث المحيطة حولنا..

لا يمكن أن تمتلئ بالعزة، وأنت تشاهد جنود الاحتلال يدنسون المسجد، ويعيثون فيه فسادا.. ولا يمكن أن يسكن قلبك، وأنت ترى استباحة المجندات الإسرائيليات لحرمات المسجد، ومصلياته الطاهرة، وهن يدسن بأقدامهن على سجادة الصلاة، ويتقاسمن الضحك في محرابه، وبين مقامات الأنبياء الكرام..

نكسنا رؤوسنا منذ اللحظة التي وقفنا فيها على البوابات الحديدية، نرتجي الدخول من الجندي الإسرائيلي، ونمتثل للأوامر التي يحكمنا بها..

راح الحرم الإبراهيمي الشريف..

وانتهكت حرماته...

ودنست المقدسات..

نخرج من الحرم الإبراهيمي كما دخلناه أول مرة.. كان الجنود يبدلون في تلك اللحظة مناوبة حراستهم، وكنا نعيد تمثيل مشهد الدخول عبر البوابات الحديدية، بعدما طلب منا محمد عطية المصور الذي رافقنا في هذه الزيارة، تصويرنا على انفراد.. وتوثيق هذه اللحظة الفاصلة.

نخرج من ساحة المسجد، ونعبر إلى سوق الحرم، نتجمع عند بائع التذكارات الفضية، يغرينا بالشراء، ويبسط أمامنا معروضاته من الهدايا التذكارية التي ترسم صورة الحرم الإبراهيمي، ومعالم الخليل والبلدة القديمة، نشتري بعض التذكارات.

أحد الباعة يكرمنا بعصير الرمان، دون أن نطلب منه ذلك، يقول لنا إنها ضيافة مقدمنا إلى الخليل، والصلاة في الحرم الإبراهيمي، نحاول أن نقدم له بعض المال، فيرفض، لكننا نلح عليه، فيأخذ اليسير، وهو يشكر لنا مقدمنا عليهم، وزيارتنا لهم..

فوق السوق مباشرة، كانت تسكن مستعمرة «أفراهام أفينو»، وهي من المستعمرات الكبيرة في مدينة الخليل، بنيت حول موقع الحي اليهودي القديم وحول الكنيس الأساسي بالخليل، في بداية الثمانينيات من القرن الماضي، كانت الشباك السلكية الممتدة على طول الطريق الواصل بين السوق، تثير استغرابنا، لولا أن أخبرنا أحد الباعة هناك، أنهم وضعوها بعدما ضاقوا ذرعا بمضايقات المستعمرين اليهود، الذين يقومون برمي قاذوراتهم على رؤوس الفلسطينيين ومحلاتهم.. وقد تم وضع هذه الشباك لمنع وصولها إليهم.

وفي استفزاز آخر، لا يتوانى المستعمرون وبمساندة من جنود الاحتلال في إغلاق طرقات السوق، ومنع الفلسطينيين من الوصول إليها، بل وصل بهم إلى مصادرة الكثير من المحلات والمتاجر بحجة حفظ «الأمن العام»..

حدثنا الباعة ومن التقينا بهم في السوق عن حياتهم المأساوية التي يعيشونها يوميا، فمحلات سوق الإسكافة مغلقة بالكامل، نتيجة عدم وجود متسوقين لضعف الحالة الاقتصادية لسكان البلدة القديمة وقلة الزائرين الأجانب والسياح بسبب الخوف من الوضع الأمني في البلدة، بجانب انتهاكات المستعمرين لمحلاتهم بصورة يومية، وحظر التجول المتواصل الذي يفرضه جنود الاحتلال.

يحكي باعة سوق الحرم، وأهالي الخليل من سكان البلدة القديمة، ومن الذين يرتادون الحرم الإبراهيمي للصلاة، أو الذين يقطنون قريبا من المستعمرات اليهودية، عن حكايا كثيرة من الاستفزاز والمضايقة، والاعتداء على الحريات ومصادرة الممتلكات، دون أن يحرك الضمير من حولهم ساكنا..

وليس أصعب علينا من أن يحدثنا فتى لم يبلغ الرابعة عشرة عن حكايته مع السجن، وعودته المتكررة إليه، كونه «مسجل خطر» لدى قوات الاحتلال، ويخبرنا بألم عن حكاية عائلته التي فرقها الموت، بين السجون والشتات، كان الفتى يحكي ونحن نستمع إليه، وأرى عاصم الشيدي وقد ظفر بمادة صحفية ثرية، يسأل ويسجل إجابات الفتى.

خارج السوق، وقد بانت دروب الخليل وبعض معالمها، كان جنود الاحتلال يقفون على سطح أحد المباني، أخبرنا الفتى الفلسطيني، أن المبنى

في الأصل هو مدرسة أسامة بن منقذ للبنين، أقامها الأردنيون عام 1948م، وقد قام جنود الاحتلال بالاستيلاء عليها وتحويلها إلى معبد ديني، ضمن المستعمرة التي أقامها في هذا المكان، والمعروفة باسم «بيت رومانو»، يقطنها 400 من أشد المستعمرين في مدينة الخليل تطرفا، يؤمنهم2000 من جنود جيش الاحتلال..

يخبرنا الفتى الصغير: إن مستعمرة بيت رومانو عندما أقيمت كان لها تبعات خطيرة، من ضمنها إغلاق عدة شوارع أبرزها شارع الشهداء والسوق القديم وتهجير مئات المواطنين وإحلال المستعمرين مكانهم.

لكنه يعود للحديث عن نفسه، وهو الذي جرب سجون الاحتلال مرات عدة، يقول لنا بإباءة وشموخ: إننا شعب لن ينكسر!.

إنا هنا باقون

فلتشربوا البحر

نحرس ظل التين والزيتون

ونزرع الأفكار، كالخمير في العجين

برودة الجليد في أعصابنا

وفي قلوبنا جهنم حمرا

إذا عطشنا نعصر الصخرا

ونأكل التراب إن جعنا.. ولا نرحل

وبالدم الزكي لا نبخل.. لا نبخل.. لا نبخل

هنا.. لنا ماض.. وحاضر.. ومستقبل.

***

كانت حبيبات البرتقال واليوسفي التي اشتراها كل من حمود الطوقي والوضاح المعولي، رفيقاتنا التي حملناها من سوق الخليل.. في الحافلة قدم حمود لنا حبات البرتقال على سبيل تجربة منتجات الخليل، وكذلك فعل الوضاح، قالا إنهما سيحملان هذه الفاكهة معهما إلى الفندق في رام الله، ولكننا في منتصف الطريق كنا قد قضينا عليها، ولم يتبق في الأكياس غير قشورها.

تعرف الخليل منذ القدم بأنها مدينة تحيط بها الأراضي الزراعية من كل جانب، واشتهرت بزراعة العنب والتين واللوز والمشمش والزيتون والحبوب، والزراعة هي من أهم الحرف التي يمارسها السكان هناك وتمثل موردًا اقتصاديًا مهمًا..

في مكتب محافظ الخليل الذي استضافنا بعد انتهاء جولتنا، كانت عناقيد العنب، من أجمل ما حملته مائدة الغداء، بجانب الأكلات الشعبية التي استمتعنا بمذاقها..

ومن على شرفة تطل على المدينة، من مكتب المحافظ، أطللت على المدينة، وهذه المرة كنت قد عرفت اتجاه الحرم الإبراهيمي، وعرفت البلدة القديمة، وعرفت سوق الحرم، والأهم أنني عرفت صمود شعب، وكفاحه من أجل البقاء على أرضه، مهما كلف الثمن..

تراءت لي في تلك اللحظة صورة الفتى الفلسطيني، وحديثه عن الإجرام الصهيوني الذي مارسه الاحتلال بحقه، وابتسامته التي ودعنا بها، تراءى لي وجه الخليل الباسم، رغم الألم، ووجه الحرم الإبراهيمي وهو يمسح الدمع عن مآقيه، ويواصل الصمود..

يا جذرنا الحي تشبث

واضربي في القاع يا أصول

أفضل أن يراجع المضطهد الحساب

من قبل أن ينفتل الدولاب

لكل فعل رد فعل:- ... اقرأوا

ما جاء في الكتاب.

يا صديقي!..

أرضنا ليست بعاقر

ما الذي يمكن البوح به، في أتون الحصار والتشريد وانتهاكات الاحتلال بحق الإنسان والمكان.. كل يوم يمر علينا، نقترب أكثر من معاناة الفلسطيني على أرضه وفي وطنه، نسمع حكايات كثيرة.. ونرى بكائيات تتجسد صورتها في كل مكان.

وما الذي يقال في هكذا سفر؟!.

الطريق الذي تآلفنا معه.. الجندي الإسرائيلي.. والمستعمرات.. واضطهاد المستعمرين.. والمدن الجميلة، وحكايات الصمود والإرادة التي ترافقنا كلما انتقلنا من مدينة إلى أخرى، نشاهد معالمها في هذا الطريق، أو على ذاك السفح، أو قريبا من القرى والمزارع، وحتى على الحواجز التي وضعها الاحتلال، لكسر إرادة الانسان الفلسطيني، وإذلاله على أرضه وفي وطنه، ولكن كل ذلك يرتد خائبا، فهذا الشعب، عصي على الانكسار، يصعب هزيمته، ووأد صموده..

في الطريق إلى نابلس، سمعنا حكاية ثائر حماد القناص الشاب، الذي صدم الاحتلال ومجتمعه ومخابراته بعملية «وادي الحرامية» على الطريق بين رام الله ونابلس في 3 مارس 2002م، بعدما تمكن من قتل 11 جنديا ومستوطنا وجرح 9 آخرين بـ24 رصاصة أطلقها من بندقية قديمة من أسلحة الحرب العالمية الثانية.

وشكلت العملية إحدى الضربات القاسية جدًا التي وجهت للجيش الإسرائيلي خلال الانتفاضة الثانية، وبدون أدنى شك أكثرها إهانة، وسارعت الأوساط العليا ومن خلال التحقيق الذي أجري بعد الحادث إلى إلقاء المسئولية على القادة والجنود الميدانيين الأموات منهم والأحياء على حد سواء.

ولم يتوصل الاحتلال لحل لغز العملية إلا بعد أكثر من عامين ونصف العام، استمر خلالها في البحث عن منفذها، وفي الليلة التي اعتقل فيها ثائر، توجه ضباط كبار من قوات الاحتلال لمنزل ثائر لأجل اعتقاله، ومن ثم قاموا بوضعه في غرفة الضيوف، وقام الضابط الصهيوني الذي اعتقله بأداء التحية العسكرية له، ومن ثم قام باعتقاله.

وقد أصدرت محاكم الاحتلال بعد 30 جلسة حكمها على البطل ثائر حماد بالسجن المؤبد 11 مرة إضافة إلى السجن لعشرين عامًا.

في منتصف الطريق تقريبا، أشار محمد سطيح إلى الوادي الذي شهد تنفيذ العملية، وإلى المكان الذي تمركز فيه ثائر حماد، والذي يكشف كل المواقع داخل الموقع العسكري المستهدف، وحسب الفحص الميداني في التحقيق الذي أجراه الجيش الإسرائيلي تبين أن هذه النقطة هي الوحيدة التي لا يمكن أن يشاهد فيها.

كنت أكتب قصة ثائر حماد، وأنا أمتلئ بالفخر من بطولة شاب في عقده الثاني، هز أركان الجيش الذي لا يقهر، أكتب وأطرح مع الرفاق السؤال تلو الآخر، عن عملية وادي الحرامية، وتفاصيلها، ومجرياتها، وأسأل كثيرا عن ثائر، الذي أخذ من اسمه نصيبا، فكان بالفعل ثائرا من أجل الوطن وكرامته،

حين قال لي محمد سطيح: أدخل على موقع البحث جوجل، واكتب اسم ثائر حماد، وستأتيك المقالات والأخبار عنه بلا حصر!!.

يا صديقي!... أرضنا ليست بعاقر

كل أرض، ولها ميلادها

كل فجر، وله موعد ثائر!.

***

أتأمل نابلس من ربوة مرتفعة تطل على وجه المدينة، أقلب بصري بين أرضها وسمائها وجبالها، أعانق الشمس وهي تلملم آخر خيوطها، وتستعد للرحيل، الطرقات تمتلئ بالأضواء المتحركة، البيوت تضئ كأنها كوكب دري، الروح تحلق عاليا، تنتشي بلحظات الغروب، والعين تراقب ما تبقى من صورة الشمس المرتسمة في السماء.

نابلس هذه المدينة الجميلة، التي تحتضن أبهى صور للغروب، لا يمكن أن تصرف نظرك عنها، حينما تودعها الشمس، وتسافر خلف الجبال، تظل متعلقا بها، حتى الرمق الأخير، تحاور الجمال فيها، فتكتشف أنك تحاور روحك التي توحدت مع المكان، وصارت جزءا منه.

وصلناها ظهيرة يوم الخميس.. فهدأت أنفسنا بعد طول السفر والتنقل بين الحواجز والطرق الملتوية، وبعد حديث عن بطولة ثائر حماد، وارتاح الفؤاد إلى مسكنها، ورأيت في تلك اللحظة فرحة غامرة، تملأ قلب أبي يزن هشام واصف، وسمعته بعدئذ يقول بسعادة غامرة، إنها مسقط رأسي، وهي بلد أهلي وهنا الكثير من أقاربي.. سأرتاح معهم الليلة، وسأعود إلى رام الله صباح السبت.

كان برنامجنا القادم يشير إلى أننا سنكون على موعد مع مدينة القدس، والصلاة في المسجد الأقصى، مسرى الأنبياء ومهد الرسالات، ومما يؤسف له أن سلطات الاحتلال تحظر دخول الكثير من الفلسطينيين إلى مدينتهم المقدسة، وترفض إعطاءهم أذن الدخول.. وكان هشام واحدا من الذين لم يروا القدس لأكثر من أربعين عاما..

ولأنه ابن نابلس.. الشام الصغيرة، فقد راح أبو يزن يحكي لنا عنها الكثير، عن تاريخها وحضارتها التي تعود إلى حوالي ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، أخبرنا عن موقعها المتوسط بين دول العالم القديم، وتأثرها بحضارات المصريين والبابليين والآشوريين والفرس والروم والبيزنطيين.

نابلس قاهرة الغزاة، انطلقت من حاراتها العتيقة ومن بيوتها القديمة المقاومة المجيدة وخطت بدماء شهدائها الأبرار أروع صور التضحية والشهادة، تكفكف الآن جراحها، وتعود سيرورتها في الحياة بهمة ونشاط.

أخبرنا أبو المعتز أن نابلس تعتبر العاصمة الاقتصادية لفلسطين، هنا يمكن للمرء أن يجد البضاعة التي يبحث عنها، بأسعار جيدة، لكن المؤسف أن حال هذه الأسواق، كما أسواق الأراضي الفلسطينية المحتلة جميعها، تعتمد في جلب بضاعتها على الموانئ الاسرائيلية، ويتم إدخال البضاعة إليها عبر الحواجز التي تقيمها سلطات الاحتلال، والتي تقوم من جهة أخرى بإغراق السوق الفلسطيني بالبضائع الإسرائيلية وتضع المنتجات الفلسطينية في منافسة غير متكافئة مع منتجات الكيان الغاصب.

ومع حملات المقاطعة، ورفض المنتج الإسرائيلي وخاصة البضائع الواردة من المستعمرات الإسرائيلية، فإن خطط إسرائيل لضرب المنتجات الفلسطينية، ترتد في كثير من الأحيان خاسرة.

في محل لبيع المواد الغذائية، وجدت البائع يضع ركنا خاصا للمنتجات الإسرائيلية، ويشير إليها بالاسم، لتعريف زبائنه بها، وترك الخيار لهم لشرائها أو مقاطعتها، وبالنسبة لي لم أعر هذا الركن أي اهتمام، بل انتقلت إلى الأرفف الأخرى، التي تحمل بضائع أكثرها من أوروبا وأميركا، ووجدت أغلبها يحمل اللغة العبرية، كونها موجهة في الأساس إلى السوق الإسرائيلي، ومنه تنتقل البضائع إلى السوق الفلسطيني.

سجِّل

أنا عربي

سلبتَ كرومَ أجدادي

وأرضًا كنتُ أفلحُها

أنا وجميعُ أولادي

ولم تتركْ لنا.. ولكلِّ أحفادي

سوى هذي الصخور..

فهل ستأخذُها

حكومتكمْ.. كما قيلا؟.

***

وحده مشهد الغروب في نابلس، يعيدني للصورة كلما حاولت نبش ذاكرتي في هذه المدينة، أنظر إلى نابلس، وأستعيد حكايات زاخرة بالجمال النابلسي المتجسد في كل زاوية وكل ركن فيها، كانت منارة المسجد الصاعدة قريبا من الربوة التي وقفنا عليها، تجمل المشهد الماثل أمامنا للغروب، من هذه البقعة التي وقفنا عليها، ونحن نرسل بصرنا شرقا حتى جبل عيبال وغربا حتى جبل جرزيم، نطل على أجمل منظر يمكن مشاهدته في فلسطين كلها، «من دان إلى بير سبع»، كانت نابلس تختال كعروس بألوانها البديعة، وتتباهى بسهولها وجبالها.. بأشجارها ومعمارها.. وبكل شيء فيها.. حتى بالشمس التي تبدو أجمل في سماء نابلس.

كان الأصدقاء الذين شاركوني لحظة الغروب، يوثقون المشهد بعدساتهم، وينتقلون بين صورة وأخرى، كان الوضاح المعولي يصور المشهد تلفزيونيا بصوته، وهو يتحدث عن المدينة وجمالها.. قبل أن يعطيني الكاميرا، لاستكمال التصوير، وكان حمود الطوقي يتداخل معه في الصوت، ليضيف وصفا عن المدينة وعراقتها..

وكذلك فعل عاصم الشيدي، وفعلت عزيزة راشد، ووقفت بعدئذ أنا أضبط عدسة هاتفي على أقرب صورة يمكن التقاطها، كنت أغبط عاصم والوضاح اللذين امتلكا عدسات تجوب مكامن الجمال، ويلتقطون الصورة تلو الأخرى بامكانيات كبيرة في عدساتهم، وكنت أقف معهم وأطلب صورة لي في هذه الجهة، أو الجهة الأخرى.

كانت معالم نابلس تتداخل كأنها مفردة واحدة، ضمن لوحة تشكيلية، تتمازج فيها ألوان الطيف، فقريبا منا يمتد شارع رفيديا ليلتقي بشارع عمر بن

الخطاب، الذي يصل حتى مركز المدينة، والبلدة القديمة حيث المباني، التي يزيد عمرها على أربعة آلاف سنة، وفيها الحارات، والمباني المشيدة على النمط المعماري الحضري التقليدي، والاحواش، والأزقة، والممرات الضيقة، وسبل الماء، والزوايا، وخلفها يمتلئ شارع فيصل بالمحلات والمراكز التجارية الحديثة.

ودون أن أنسى كفاح المدينة، وضروب بطولاتها والبسالة التي أبداها أهلها، مع كل غزو واحتلال يطولها، منذ الاحتلال الصليبي للمدينة، وتسميتها بـ»بوليس»، وحتى الحملة الفرنسية على عكا عام 1899م، ومجزرتهم الرهيبة في يافا، حينها كانت نابلس تسجل حضورها في المقاومة، وكان جبل عيبال مقبرة للغزاة الذين تم إضرام النار فيهم بعد استدراجهم إليه.

جبل النار

يا صوت الزيتون الأخضر

يا صوت «زيادين» الهدّار

يا ظلّ السيف على عنق الخائن

لبيك أضأت لك البيرق

وأنا في الدرب.

كنا في عالمنا الجمالي نراقب المدينة من عليائها، بعيدا عن باقي الرفاق الذين راحوا يتجولون داخل مستشفى النجاح، ويتعرفون على خططه وإنجازاته، سيما في مجال رعاية مرضى الفشل الكلوي، وتقديم العناية الطبية لهم، وكان ختام جولتهم، جلسة في إحدى القاعات في ضيافة إدارة المستشفى..

ولأننا في نابلس.. فقد عرفنا في هذه المدينة المذاق الحقيقي للكنافة، التي تعتبر من أشهر الحلويات الشرقية في بلاد الشام، وترتبط بمدينة نابلس، ولا تذكر دونها، كانت أطباق الكنافة النابلسية التي توزعت علينا، مع القهوة أو الشاي، من ألذ ما أكلت من الحلويات في هذه البلاد..

والمصادفة الجميلة، أن الكنافة النابلسية ذاتها، كانت حاضرة في زيارتنا إلى مشروع بناء مدرسة مسقط، في مدينة أريحا، حيث حرص مقاول المشروع على تقديمها لنا كضيافة كريمة منه، وأخبرنا حينها أنه تعاقد مع ذات الشخص الذي جلبها لنا في مستشفى النجاح، وهي صناعة منزلية، بطعم ألذ وأجمل من الموجودة في الأسواق.

ورغم ارتفاع السكر فيها، إلا أن طعمها اللذيذ، جعلنا نعيد الكرة ثانية، وأخذ طبق آخر منها، استمتعنا بطعمه أنا والرفاق.

وليست الكنافة وحدها ما يرتبط بنابلس، فالمدينة تشتهر كذلك بصناعة الصابون التقليدية، بالإضافة إلى بعض المنتجات الزراعية مثل الزعتر النابلسي والجبن النابلسي.

كان الليل قد أسدل ستاره على نابلس، وكان أمامنا برنامج آخر حرصنا على وجوده ضمن جولتنا في المدينة، وهو زيارة جبل جرزيم هناك.. هذه الرغبة نبعت أول مرة، قبل مقدمنا إلى فلسطين في لقائنا مع السفير الفلسطيني في مسقط، الذي أخبرنا عن جبل جرزيم وعن الطائفة السامرية التي تقيم فيه والتي تناهض الصهيونية وتعتبر إقامة إسرائيل كفرا، وحفزنا لزيارة المكان.. فكان لنا ذلك.

أُفكِّر، من دون جدوى:

بماذا يُفَكِّر مَنْ هُوَ مثلي،

هُنَاكَ على قمَّة التلّ، منذ ثلاثةِ آلافِ عامٍ،

وفي هذه اللحظة العابرةْ ؟.

***

على ارتفاع يقارب الألف متر عن مستوى سطح البحر، كانت الحافلة تقودنا إلى جبل جرزيم برفقة محافظ نابلس جبرين البكري، وكان الليل قد بسط عباءته، وغطى الكثير من معالم المدينة، وكانت الدور السكنية والمباني المتوزعة على هضاب ومرتفعات المدينة، تتلألأ بأنوارها، كلوحة تكتظ بالتفاصيل الجميلة.

كانت صورة ضبابية الملامح ترتسم عن أتباع الطائفة السامرية، واستخدامهم للسحر الأسود، وتسخير الجن في مآربهم، تسبقنا إلى وجهتنا، كانت الأساطير والحكايات عنهم تختلط بين الواقع والمتخيل، وبين الحقيقة واللاواقع، ولذلك كنا في الطريق صعودا إلى الجبل نحوقل ونقرأ المعوذتين وآية الكرسي، كي لا يصيبنا ضررهم، ولا يمسنا سحرهم.

حين توقفت الحافلة، نزلنا ببعض الخوف والتوجس، وأعيننا تمشط المكان، حيث ثمة أطفال صغار يجلسون أمام إحدى البقالات، غير عابئين بالمدرعة الإسرائيلية التي دخلت المكان، وجنودها مدججين بالسلاح.

في الدار التي حملت اسم الكاهن الأكبر واصف توفيق ابن الكاهن

الأكبر توفيق خضر، استقبلنا الكاهن حسني واصف السامري، الذي أشار إلى تقديم بعض الحلويات لنا، رأيت توجس الكثير من الرفاق من الأكل أو شرب أي شيء يقدم هنا.

كان حديث الكاهن حسني السامري، طويلا عن طائفته، وعن ولائهم للدولة الفلسطينية، وحدثنا عن مساعدة الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات الذي تعامل مع الطائفة السامرية باعتبارها جزءا أصيلا من الشعب الفلسطيني، ودعمهم في إقامة المتحف السامري الموجود في جبل جرزيم، وتخصيص مقعد لهم في المجلس التشريعي الأول ومثل الطائفة فيه، آنذاك، الكاهن سلوم، معربا عن حزنه من إلغاء المقعد السامري في المجلس التشريعي الثاني.

كان الحديث مع الكاهن حسني السامري يمتد بنا، حينما أشار مرافقنا محافظ نابلس جبرين البكري، بالمغادرة، حتى لا نتأخر على المعابر الإسرائيلية التي تتوزع بشكل عشوائي في الطرقات المؤدية إلى الضفة الغربية ورام الله.

في الشارع الخارج من جبل جرزيم، إلى مدينة نابلس، تأملت الجبل الذي بدأ يختفي شيئا فشيئا.. وأنا أسترجع التساؤلات الحائرة التي انبثقت من لقاء الكاهن حسني السامري، وما قيل لنا عنهم قبل لقائنا بهم، دون أن أستبعد الدور الصهيوني في تشويه صورة ومعتقدات هذه الطائفة، كدأبهم في تزوير التاريخ، بما يتفق مع أهوائهم.

و»يرحلون» من البيوت الى الشوارع،

راسمين إشارة النصر الجريحة، قائلين

لمن يراهُمْ:

«لم نَزَلْ نحيا، فلا تتذكّرونا»!.

كل هذا الضوء لي

أفتح ذراعي.. وأحضن موجة الريح القادمة نحوي.. أمتلئ بنسيمها، وأرسل بصري للبعيد.. أعانق الصورة بكل تفاصيلها وملامحها.. أتنفس بعمق، أتأكد أن النسيم هنا، ليس كأي هواء في مكان آخر.. في أنفاسه رائحة المجد، والصمود، وفي عبقه حكايات العزة والإباء.. وبين شذراته أمل قادم، يمسح الدمع عن المدينة، ويعيد البسمة إليها بعد حزن طويل.

أقف الآن على مشارف القدس، متكئا على سور صغير يحيط بربوة، تطل على الحرم الشريف، وعلى المدينة القديمة، والمقبرة اليهودية، أستعيد الحلم الذي قذفني إلى هذا المكان، وأغبط نفسي على هذه اللحظة التاريخية في حياتي، وحدها هذه الساعة التي تمنيت فيها أن أكون أنا، لا أحد سواي، أستشعر كل التفاصيل الجميلة حولي، لتكون ذاكرة أركن إليها كلما اهتزت بي الحياة، وشقتني الأيام..

كل هذا الضوء لي..

أمشي؛ أخف؛ أطير ثم أصير غيري في التجلي..

لا شيء في الحياة يعادل أن تناظر حلما يتحقق أمام بصرك، وأنت جزء منه، تدخل بوابة الحلم الذي تدرك أنه عصي، لكنه ليس بمستحيل، الأيام

وحدها قادرة على تحويل المستحيل إلى حقيقة، والحلم إلى واقع، وتأخذك في مدارات لا تعرف نهايتها، ثم تفتح لك بوابة في أقصى المسار، وحين تلج المكان، تجد حلمك يسكن هناك، ثم تسكن أنت إليه.

ماذا يمكن أن تقول في حضرة القدس!!.

وأي الكلمات تسع وصفك هذه اللحظة، وعلى أي التعابير تتوسد حروفك..

تحاول لملمة الصورة الماثلة أمامك، تصنع منها مشهدية الذكرى، وتحج إليها كلما اشتقت إلى هذا المكان، وحدثتك نفسك بالسفر إليه..

***

فرحا بشيء ما خفيٍّ، كان يحملني

على آلاته الوتريّة الإنشاد يَصْقلني

ويصقلني كماس أَميرة شرقية

ما لم يغَنَّ الآن

في هذا الصباح

فلن يغَنّي.

***

لم يكن صباحا اعتياديا في رام الله، فالفتية الذين جابوا البلاد الفلسطينية المحتلة، والذين ذرعوا نابلس وبيت لحم والخليل وأريحا وغيرها، الذين وقفوا على الحواجز الاسرائيلية، وانتظروا إذن الجندي الاسرائيلي للمرور إلى الجزء المشطور من الوطن الفلسطيني، الذين عايشوا حرق الزيتون، وهدم المنازل، وقتل العزل، الذين شاهدوا المأساة الفلسطينية بكل تفاصيلها، هم اليوم على موعد استثنائي، وفرح أكبر من قلوبهم يسكن بين الصدور..

كانت روزنامة الصباح تشير إلى أنه يوم الجمعة.. ولا يهم التاريخ التالي لذلك، وكان برنامج الزيارة يقول إن موعدهم القدس.. وليست القدس عنهم ببعيد، لكن الجندي الإسرائيلي حال بينها وبين من يشتهي زيارتها، ويتوق إلى الصلاة في حرمها الشريف..

لا يمكن أن تطأ أقدامك القدس، حتى لو كنت ابن هذه الأرض، وعشت فيها ردحا طويلا من الزمن، ونبتت جذورك فيها، وتشعبت أغصانك، ولم تثمر بعيدا عنها، لن تزور المدينة، دون الحصول على تصريح الزيارة من المحتل، وتقف على الحواجز الحديدية، ويتم تفتيشك، وحتى إذلالك، وقد يؤذن لك بالدخول، وقد تعود أدراجك من حيث أتيت..

القدس.. هذا السجن الكبير، الذي يمارس الاحتلال فيه كل سطوته وجبروته وطغيانه، هذه التي يشرد أهلها، ويضايق سكانها، ويهدم منازلهم، ويقطع أوصالهم، تبقى عصية على الانهزام، والخضوع لإرادة المحتل، مرفوعة الرأس، شامخة.. صامدة.. راسخة كما أشجار الزيتون المحيطة بها، وأشجار اللوز السامقة.

كان الموعد إليها بعد الفجر مباشرة..

التقينا على مائدة الإفطار كعادتنا، والشوق هذه المرة، يسبقنا إلى وجهتنا، كان الفرح يلون وجوه الرفاق، فيما الأسى والألم يغلف وجوه أصدقائنا الفلسطينيين الذين كانوا معنا في زيارتنا إلى المدن الفلسطينية، فأكثرهم محروم من زيارة مدينة القدس، كما حال أبي يزن هشام واصف الذي غادرنا في نابلس، ليرتاح إلى بلدته الصغيرة هناك.

كانت الحافلة التي وقفت قبالة الفندق ذلك الصباح، مختلفة عن الحافلة التي دأبت على أخذنا في جولاتنا السابقة، وكذلك كان السائق، الذي تأكد من وجودنا فردا فردا، وأكد على حملنا تصاريح دخول القدس، وجوازات السفر، ثم راح يذرع شوارع رام الله، حتى حاجز قلنديا..

كان جدار الفصل العنصري يحاذينا، ونحن نعبر في طريق ممتلئة بالناس والمركبات، في نقطة قريبة من الحاجز، قال لنا السائق إن علينا أن نترجل من الحافلة، ونمشي حتى الحاجز، وهناك ننهي إجراءات التفتيش والدخول، ونلتقي به في الطريق التالي..

كان جدار الفصل العنصري قريبا منا، يطاول بصرنا، ويفتح ذراعيه ليطوقنا من كل صوب، كان بشعا، لكن روح التحدي جعلته يحمل صور أبطال فلسطين ورموزها، وقادة المقاومة، وكلمات محمود درويش وسميح القاسم وفدوى طوقان وتميم البرغوثي، وصورة القائد الرمز ياسر عرفات، والقائد الأسير مروان البرغوثي، وشعار حركة المقاومة الإسلامية «حماس»

وحركة فتح، وفصائل فلسطينية وأسماء الشهداء، كلها صنعت من الجدار العنصري ملحمة للصمود والتحدي..

كانت الجدران تستعصي على الفهم

وكان الأسبرين

يرجع الشبّاك والزيتون والحلم إلى أصحابه

كان الحنين لعبة تلهيك عن فهم السنين.

***

أقف قريبا من الجدار العنصري، أنظر للألم المرسوم عليه، الألم الناطق بالمأساة التي يعيشها الفلسطينيون في الضفة الغربية، مأساة تتعدى الوصف، كل الحكايات التي ستقال، لن تستطيع أن تنبض بالوجع الحقيقي الذي يسببه هذا الجدار البغيض، ليتعدى من مجرد حصار وخنق إلى كونه سدًا في طريق الحلم ومخالفة صريحة لحق الإنسان في الحياة.

أريد أن أسطر كلماتي على الجدار، أود أن أرسم الحروف التي تصارعني لتنهش هذا المارد الجاثم على صدر الإنسان الفلسطيني، لكن سائقنا ومرافقنا إلى القدس، يقول إن علينا ان نسرع للوصول إلى الحاجز، أنظر إلى صورة الشهيد ياسر عرفات التي طبعت على الجدار، وهو يرفع إشارة النصر، أسمع لحظتها عبارته الخالدة: إن شاء الله سنصلي سويًا في القدس الشريف، شاء من شاء، وأبى من أبى.

وصورتك محفورة في القلب، نحملها معنا إلى القدس، سنصلي سويا أيها القائد، أنت في عليائك هناك، ونحن هنا، تتلاقى أرواحنا، وتسبح بحمد الله، وتدعو لخلاص أولى القبلتين وثالث الحرمين من براثن اليهود المعتدين، وكلماتك ترن في أسماعنا، تصعد بنا نحو الصخرة المباركة، قريبا من الأقصى، نتأمل جموع المصلين التي ملأت الساحة الفسيحة، ونندس بينهم، نبتهل في الصلوات، وأرواحنا معلقة في قناديل تتأرجح داخل المسجد.

أرفع جبهتي، رغم الانكسار الذي يسكنني، أرى حنظلة يدون حكايته على الجدار، هنا صاحبه ناجي العلي، ومحمود درويش، وياسر عرفات وجيفارا وحكاية الثورة الفلسطينية التي لن تهدأ، ولن تستكين طالما بقي شبر في الأرض الفلسطينية محتلا..

طفل يكتب فوق جدار

طفل... نبتت بين أصابعه النار

أيتها الخوذات البيضاء حذار

من طفل نبتت بين أصابعه النار

من طفل يكتب فوق جدار

يكتب بعض الاحجار

وبعض الأشجار

وبعض الأشعار.

***

نقترب من الحاجز، نتأكد من أوراق العبور، وجوازات السفر، نتأكد من مشاعرنا أن لا تنفرط في هذا المكان، فترد خاسرة، نقف خلف حاجز حديدي متشابك القضبان يفتح ويغلق بشكل آلي، عوض باقوير.. مصطفى أحمد.. عاصم الشيدي.. حاتم الطائي.. حمود الطوقي والبقية، نتوالى على الدخول لنقف أمام المجند الإسرائيلي وهو ينظر إلينا الواحد تلو الآخر، من خلف نافذة زجاجية، ويتأمل إذن العبور، وجواز السفر، ثم يتلكأ في ختم الورقة، ويطرح أسئلة من قبيل، من أين أنتم، وما طبيعة زيارتكم، هل تحمل أي سلاح؟، ثم يعيد النظر في صورة الجواز، وإلى صورتنا، ويقلب الجواز ورقة ورقة.. وبعدها، يتم تحويل من يريد استفزازه أكثر، إلى الغرفة المجاورة، وهناك يتولى جنود آخرون التحقيق في هوية العابر، ومن أين هو، وما تاريخ ميلاده، وجنسيته، وطبيعة زيارته، رغم أن ذلك مشار إليه في إذن العبور.. ولكنها المهانة التي علينا أن نتقبلها طالما أننا بهذا الضعف.

يدخل عوض باقوير أولا، ينظر إليه جندي الاحتلال، فيقرر تحويله، إلى الغرفة المجاورة للتحقق من شخصيته، بعد زمن تجاوز العشر دقائق، يخرج عوض، وتفتح البوابة لشخص آخر منا، خمس دقائق، ثم ثالث وهكذا.

يتسلى الجندي الإسرائيلي، وهو يمارس سطوته في الحواجز، وهو يعرف كما الذين وضعوه في هذا المكان، إنها تثير سخط وحفيظة الفلسطينيين والعرب الذين يقفون طوابير طويلة، بانتظار إذن العبور، ويعرفون كم الغضب الذي يسكن النفوس، وهي تقف خلف القضبان، تكتم غيظها، حتى لا يتعكر

مزاج الجنود، فيغلقون البوابة، ويمنعون العبور.

أخبرنا عوض أن الوشاح الفلسطيني الذي لبسه، كان سببا في توقيفه فترة طويلة واستفزازه بالأسئلة.. كان الجنود يريدون طمس الهوية، حتى من الأوشحة التي نعلقها، ومن الكلمات التي ننطقها، كانت دولتهم المحتلة تريد محو الدولة الفلسطينية من الوجود، ولذلك يتفننون في ابتكار أساليب التعذيب والاستفزاز بحق كل من يحمل شعارا أو خارطة فلسطين، أو أي رائحة منها، ولو استطاعوا سبيلا لنزع اسمها من صدورنا، لفعلوا ذلك.

عدنا للحافلة نشق الطريق إلى القدس، والأوشحة التي خبأناها عن عيون الاحتلال، عادت لتزين جيادنا، ونغني معا:

يا أطفال بابل

يا مواليد السلاسل

ستعودون إلى القدس قريبا

وقريبا تكبرون

وقريبا تحصدون القمح من ذاكرة الماضي.

***

دون الحاجة إلى قراءة التاريخ، والنبش في صفحاته، كنا على يقين أننا ضيعنا الطريق إلى القدس، وأننا سلكنا مسارا آخر لتحرير فلسطين، يمر بإشعال الفتن، والتآمر على بعضنا البعض، ونشر الفوضى والدمار في البلاد العربية، الجيوش العربية ضلت الطريق إلى فلسطين، وتوجهت بأسلحتها إلى صدر المواطن العربي الذي طالب بالحرية والكرامة على أرضه، لم تعد فلسطين القضية الكبرى للأنظمة العربية، أصبحت مع الثورات العربية ـ بكل المسميات التي تحملها، أو الأسباب التي دعت إلى قيامها ـ نسيا منسيا.

نأخذ الطريق إلى القدس، الطريق التي سجلت حضورها في التاريخ، هنا سار من قبلنا قادة كبار، وتحركت جيوش جرارة، على هذه الدروب نزح مئات الآلاف من الفلسطينيين بعد طردهم من أرضهم وديارهم إبان نكبة 1948، وهنا كتبت الأرض عشرات المجازر والفظائع وأعمال النهب وهدم القرى وتدمير المدن وتحويلها إلى مدن يهودية.

يشق الطريق منطقة القدس شمالًا بطول يصل حوالي (9 كم) ويلحق أضرارا فادحة بضاحية بيت حنينا الواقعة إلى الشمال على طريق القدس ـ رام الله حيث يبدأ الطريق الالتفافي السريع رقم 60 من القدس لينتهي إلى الجنوب الغربي من رام الله عابرًا أراضي قرى بير نبالا وجديرة ورافات ويربط راموت والمستعمرات المجاورة بالقدس.

كنا نسير والمستعمرات الإسرائيلية تتوالى في طريقنا بمسمياتها البغيضة، تلتهم الأرض والهوية وتطمس التاريخ الفلسطيني، لتكتب تاريخا مشوها،

وأحداثا مزيفة، تنتصر لفكرة دولة الاحتلال، كنت أوزع النظرات يمنة ويسرة، فهناك مستعمرات محصنة، أقيمت وفق نظام هندسي يحاكي المعمار الأوروبي، وهنا عشوائيات يقطنها من بقي متشبثا بأرضه، وما بينهما بون شاسع، لكن مع ذلك يظل من بقي في القدس أسعد حالا عمن توزع بين الشتات.

كانت اللافتات تشير إلى أننا في «أورشاليم»، وأن إسرائيل أحكمت قبضتها على المدينة المقدسة وما حولها، وغيرت امتدادها من شرق غرب إلى شمال جنوب, واستكملت سيطرتها على المواقع الأثرية والحضارية العربية المحيطة بالقدس والخليل وبيت لحم، وأصبحت التلال الأثرية التي تقع شمال القدس باتجاه رام الله ذات موروث ثقافي يهودي، وهذا برز في (تل الفول) وتل النصبة والنبي صموئيل، وخرب كثيرة تقع في أراضي قرية عناتا وحزما وقرى العيزرية وأبو ديس والزعيم بالإضافة إلى موقع مستعمرة معاليه أدوميم التي في الأصل تعرف باسم دير المرصرص والذي كان ديرًا قائما في تلك المنطقة، في العصر البيزنطي.

نقترب من هوى الفؤاد، نعبر قريبا من الجامعة العبرية، فمستشفى هداسا، يحدثنا مرافقنا عن التقدم التقني والعلمي والطبي لإسرائيل، ويسرد تاريخ الجامعة العبرية وأبرز من تخرج منها، لا أهتم للحديث، فما أقيم على باطل فهو باطل، فهذه الأرض عربية فلسطينية، وستكون كذلك شاء من شاء

وأبى من أبى.

نتوقف برهة من الزمن لزيارة مستشفى المقاصد الذي أقامته جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية على جبل الزيتون، هذا المستشفى الخيري الذي يعتبر قلعة وطنية شامخة، يقدم خدماته الطبية إلى جميع أبناء الشعب الفلسطيني دون تمييز سواء أكانوا من قطاع غزة أو من الضفة الغربية أو من القدس الشريف منذ عام1968 م.

من شرفة في الطابق الثاني في جناح التنويم في مستشفى المقاصد، أناظر المسجد الأقصى وما حوله، الآن بات حلم الصلاة فيه أقرب من حبل الوريد.

يا قدس، يا مدينة تفوح أنبياء

أطل من ربوة على صورة القدس ومعالمها، ترفرف الروح في عليائها، وتحتضن كل تفاصيلها، نسمع خفقات قلوبنا ترتج بين الصدور، والأشواق تتطاير لتحط بين القبة والمسجد، وتفتش عن الملامح المألوفة من الصور المتداولة، والذاكرة تستعيد مشاهد سمعتها، أو قرأت عنها.. أهفو لمعانقة كل مشهد هناك يراودني، وتقبيل كل ذرة تراب سكنت حياضها، ويصلني عطرها.

بدت معالم المدينة القديمة واضحة، وأنا أرسل بصري جهة قبة الصخرة، وهي في أحسن ما يكون، تتوسط الصورة وتلهب الأشواق فينا، قريبا منها لاح لي المسجد الأقصى وسور الحرم القدسي الشريف، والطرق الواصلة إليه، وهناك في القريب لمحت دخانا يتصاعد وسط الشارع، عرفت أن هذا المشهد اعتيادي في مدينة محتلة، يمارس فيها الاحتلال أبشع أنواع القهر والتسلط.

أقف بعيدا عن الرفاق، أناجي المدينة في صورتها البانورامية التي تجسدت أمامي، وأرسل بصري ليحط بكل الأمكنة، أستعين بلوحة ابتعتها من رجل قريب من المكان، أبسط اللوحة أمامي، فأجدها باللغة العبرية، أعود للبائع، مفتشا عن لوحة بلغة أفهمها، فلا أجد غير لوحات باللغة الإنجليزية، أختارها، ثم أعود لفك تسميات الأمكنة حسب الرواية الإسرائيلية.

في مدينة كالقدس، لا غرابة أن يمضي التهويد بوتيرة متسارعة، نتيجةً للحالة الرثّة للعالمين العربي والإسلامي وتخليهما عن مسئولياتهما تجاه الأقصى والقدس، فالدولة المحتلة تعمل جاهدة للسيطرة على المدينة المقدسة وتغيير معالمها بهدف تهويدها وإنهاء الوجود العربي فيها، وقد استخدمت لأجل ذلك الكثير من الوسائل وقامت بالعديد من الإجراءات، وكان الاستيطان أحد أهم الوسائل لتحقيق هدف اليهود الأساسي تجاه مدينة القدس.

قريبا مني بدت «المقبرة اليهودية»، وهي تحكي جزءا من سياسة التهويد الضاربة في القدم، تعاظمت بعد نكسة 1967م، وصارت المدينة بكل تكويناتها في دائرة الهدف الاستعماري لدولة الاحتلال، فكان الاستيلاء على البيوت والمنازل وهدم حارة الشرف والمغاربة ضمن سياسة وضع بصمات يهودية بالمكان، في إحداث تغيير للمشهد المكاني. وطال الهدم بدءا من الآثار الإسلامية في منطقة باب المغاربة وتتالت عمليات الاستيلاء على البيوت والمنازل في الحي الإسلامي والحي المسيحي باستخدام القوانين المختلفة لتنفيذ سياسة الخطوة خطوة باقتلاع الفلسطينيين من بيوتهم والاستيلاء عليها، وإحداث تغيير جغرافي وديموغرافي للصالح اليهودي بالبلدة القديمة ضمن مخطط مرسوم للجمعيات الاستيطانية بإقامة ممرات آمنة وتنفيذًا لمشروع القدس عام 2020 والذي يقضي بالتخلص من السكان الفلسطينيين وترحيلهم.

عندما أغلقوا باب قلبي عليّا

وأقاموا الحواجز فيّا

ومنع التجوّل

صار قلبي حارةْ

وضلوعي حجارةْ

وأطلّ القرنفل

وأطلّ القرنفل.

***

نصل منطقة الحرم القدسي الشريف، تتوقف الحافلة في شارع صلاح الدين المقابل لباب الساهرة أحد ثمانية أبواب لمدينة القدس القديمة، أفتح ذراعي ثانية، استقبل النسمة القادمة من الحرم، أحضنها بكلتا يدي، وأضمها في صدري، وأغيب في الحلم الذي قذفني إلى هذا المكان، لا آبه للمركبات التي تقطع الشارع جيئة وذهابا، أحملق في المشهد الماثل أمامي، أراهم يدخلون من الباب تغشاهم السكينة، وتحفهم الرحمة، ويملأ الإيمان قلوبهم، أود أن أنعتق من صحبة الرفاق، وأكون طائرا، أحلق في عرصات المكان، أود أن اسجد على الموضع الذي أقف فيه، أنا الآن قريب من الحرم القدسي، صرت أقرب إليه من نفسي..

أعبر الشارع، يحاذيني عاصم الشيدي وحاتم الطائي ويسبقنا البقية، وربما لأن أرواحهم أخف منا، وربما لأن قدمي لم تقويا على السير، فتثاقلتا لتعانقا أديم الأرض أكثر، وعيناي انفرطتا من محجريهما، وحلقتا مثل حمامتين تبحثان عن عش يأويهما.

حين تبينت الخيط الأبيض من حلمي، صرخت بملء الصوت.. يا قدس يا مدينة الصلاة..

هتفت بالفرح الهادر في أعماقي.. أنا في حضرة المعراج.. واشتعلت حبا وحنينا..

أمشي كأني واحد غيري. وجرحي وردة
بيضاء أنجيلية. ويداي مثل حمامتين
على الصليب تحلقان وتحملان الأرض
لا أمشي، أطير، أصير غيري في
التجلي. لا مكان ولا زمان.

***

نعبر من باب الساهرة إلى داخل المدينة القديمة، نمشي بين الدكاكين، والدروب العتيقة، يتذكر عاصم الشيدي فيروز، فيسأل عن صوتها، ولماذا لا يسمع هنا «زهرة المدائن» أو «القدس العتيقة»، يجاهر بسؤاله، فيأتيه الجواب من قريب: «اُذكر الله»..

ليوم الجمعة في دروب المدينة القديمة نكهة مختلفة عن باقي الأيام، الانتشار الأمني يكون على أشده، وتفتيش الداخلين إلى الحرم القدسي، ومراقبة التصاريح، وفصل الشباب عن الكهول، من الاجراءات التعسفية التي تتبعها سلطات الاحتلال، وما على الراغبين الوصول إلى العتبات المقدسة إلا الرضوخ للواقع.

لم نشعر بكينونتنا، إلا بعدما اجتزنا حواجز التفتيش، وصرنا في باحة الحرم القدسي الشريف.. هناك حطت الأرواح، وشعرنا بالانتصار، والحلم أصبح حقيقة.

تتسابق كاميرات التصوير لتخليد هذه اللحظة الفارقة من حياة كل منا، نهرع لنقترب أكثر، تتراءى لنا قبة الصخرة بهيبتها وشموخها، وسطوتها على المكان، نختار الزوايا المناسبة للتصوير، مرافقنا وهو مرشد العتبات المقدسة ينادينا بالإسراع إلى المسجد، والتصوير سيكون له فسحة أخرى.

لا نهتم بطلب مرافقنا التوقف عن التصوير لحظتها للحاق على الصلاة، صوت الأذان المنبعث في تلك اللحظات يشنف أسماعنا، نتوقف خشوعا، أشعر بالدمع ينحدر من الأحداق، أردد مع المؤذن الكلمات، أحول كاميرا الهاتف إلى وضع تصوير مرئي، أطوف بالكاميرا حول المكان.

وحين يصل المؤذن إلى الخاتمة.. تتوحد صورة قبة الصخرة مع مئذنة المسجد الأقصى.. ثم أنضم للرفاق، ونسير إلى ناحية المسجد الأقصى.. وأنا أردد في سري آي الذكر الحكيم (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ).

يقودنا مرشد العتبات المقدسة إلى ناحية المسجد الأقصى، نعبر السلم الواصل إلى المسجد من ساحة قبة الصخرة، تبدو الصورة هناك أجمل وأشمل، نحاول الوقوف لالتقاط المزيد من الصور، أسمع مرافقنا وهو يستحثنا، فالخطيب قد استهل خطبته، والمسجد امتلأ عن آخره..

وبدلا من أن يفترش لنا مكانا في آخر الصفوف، رأيته يسير بنا نحو بوابة صغيرة في الركن الأمامي من المسجد، ومن هناك ندلف إلى ما يشبه غرفة النقل والتسجيل التلفزيوني، ثم بوابة أخرى في الداخل، بعدها نجد أنفسنا نتخطى صفوف المصلين، سيرا للأمام، حتى وصلنا قريبا من المنبر،

هناك رأينا مكاننا محجوزا، وقد أحيط بشريط، أزاله فور وصولنا، وأومأ إلينا بالجلوس هناك..

أنا الآن في الصف الأول من المصلين، داخل المسجد الأقصى، في يوم مبارك، استمع لخطبة الجمعة، بلباسي العماني، أقف مؤديا تحية المسجد، ونافلة الجمعة، لا أدري كيف أمكنني الوقوف لحظتها، وما الكلمات التي تمتمت بها، والآيات التي قرأتها في صلاتي، أشعر بدمعي ينهلّ، وقلبي يخفق بالفرح، ويضج صدري بالبكاء..

بكيت.. حتى انتهت الدموع

صليت.. حتى ذابت الشموع

ركعت.. حتى ملني الركوع

سألت عن محمد، فيك وعن يسوع

يا قدس، يا مدينة تفوح أنبياء

يا أقصر الدروب بين الأرض والسماء.

***

قدماي تهتزان في مكانهما، والروح تنسل من الجسد، أحاول أن أجمع الكلمات، تغشاني الرهبة، وأقرأ أقصر الآيات، أركع.. وفي السجود ألصق جبهتي بفراش الأرض طويلا، أسمع نشيجي، لا أود القيام من مكاني، وقربي من الله تعالى في هذا المكان الطاهر..

يقف الجسد.. ويتمتم اللسان بالفاتحة وآي من الذكر الحكيم، أركع ثانية،

وأسجد بعدها، ثم أغرق في المكان.. لا أشعر بأي أحد معي.. وحدي هنا، والخطيب يتلو كلماته على مسامعي أنا دون الآخرين، هو يمتدح الحجاج العائدين من بيت الله الحرام، ويثني على أداء مناسك حجهم، ويدعو الله أن يتقبل منهم، وأن يخلص المسجد الأقصى من قبضة أعداء الله.. وأن يحل الأمن والسلام على ربوع أرض فلسطين، وسائر بلاد المسلمين.

نقوم للصلاة بعدها..

لا أعرف ماذا قرأ الإمام في صلاته تلك..

كنت معه جسدا، لكن الروح هائمة في المكان، والقلب سكن في المحراب المجاور لي، وأنا أركع وأسجد مع الإمام.. وأدعو الله تعالى أن يتقبل مني، وأن يرزقني العودة إلى هذا المكان، وقد عاد لحياض المسلمين، وأمِن أهله على أرواحهم وحرماتهم.

نصلي العصر جمعا، يرتج المكان لصوت «الله أكبر».. ومن ثم نرفع أيدينا للسماء، ونبتهل إلى الله بما تيسر من الدعاء، نلتف بعدها حول مرافقنا مرشد العتبات المقدسة الذي يطلب منا جميعا أن نكون بمحاذاته، ويأخذنا في جولة داخل المسجد، يبدأ من عند المنبر الذي عاد إلى المسجد الأقصى المبارك في 2007/1/23م، بعد أن أعيد بناؤه في الأردن، بعد جريمة حرق المسجد الأقصى التي قام بها الإرهابي مايكل دوهان في 21 أغسطس 1969م، حيث أتى الحريق حينها على المنبر بأكمله ولم يتبقَ منه إلا قطع صغيرة محفوظة في المتحف الإسلامي في الحرم الشريف.

يقول مرشد العتبات المقدسة: إن المنبر الذي احترق كان بهي الصنعة، شاهدًا على روعة وجمال الفن الإسلامي، وقد صنع خصيصًا في عهد السلطان

نور الدين زنكي، ليكون بمثابة تذكار لفتح وتحرير المسجد الأقصى، أما المنبر الجديد فيتألف من 16500 قطعة بعضها لا يتعدى طوله المليمترات، تم تجميعها في بناء طوله ستة أمتار من دون استخدام مواد تثبيت من صمغ أو مسامير أو براغٍ أو غراء، وإنما باستخدام طريقة التعشيق.

ونحن نسير في المصلى، توقف مرشد العتبات المقدسة جهة أحد أعمدة المسجد، وتأكد من وجودنا قربه، وأننا نسمع صوته ونراه، ثم بدأ حديثه بعد تنهيدة ممزوجة بوجع: «هذا ما أهدته لنا أميركا وربيبتها إسرائيل».. قالها وهو يشير إلى مكتبة صغيرة تحوي أنواعا مختلفة من الرصاص وقنابل الغاز التي استخدمتها قوات الاحتلال إبان اقتحامها المسجد.. وغطرستها التي لا حدود لها، واستهتارها بالمقدسات، وازدرائها للأديان، هذه الرصاصات «أميركية الصنع» شاهدة على التواطؤ الأميركي مع سلطات الاحتلال فيما تقوم به من انتهاكات وجرائم عنصرية بحق القدس المحتلة والمسجد الأقصى المبارك، ضاربة عرض الحائط بكافة الشرائع والاتفاقات الدولية.

فاجأنا

مطر ورصاص. هنا الأرض سجادة، والحقائب

غربة!.

يجيئون،

فلتترجّل كواكب تأتي بلا موعد. والظهور التي

استندت للخناجر مضطرة للسقوط.

***

في باحة المسجد الخارجية، كان جنود الاحتلال يعبرون بكل عنجهية حتى نقطة حراستهم، عند باب المغاربة، حيث الانتشار الأمني هناك على أشده، وهم يتفرسون في وجوه المصلين، والداخلين إلى الحرم الشريف، ويفتشون عن أي ذريعة لاعتقال أي مشتبه به من وجهة نظرهم، واستصدار حكم بهدم منزله ونفي أسرته، بحجج واهية كثيرة، تهدف أولا وأخيرا إلى إفراغ القدس من أهلها، وتغيير صبغتها الديمغرافية، وتحويلها من مدينة مقدسة للأديان الثلاثة، إلى مدينة يهودية خالصة.

كان منظر الجنود يثير الاشمئزاز فينا، ومع ذلك فقد كنت أحملق فيهم، وأراقب تصرفاتهم، ولم أخف رغبتي بأخذ صورة تذكارية لهم، ليس حبا فيهم، ولكن توثيقا للحظة مهينة وضع الاحتلال فيها أقدامه على عتباتنا المقدسة، وانتهك حرماتنا، واضطهد وجودنا في أرضنا، وبين مقدساتنا.. وفي المقابل أحسب أن حال الجنود كان كذلك وهم يرمقوننا بنظرة مريبة، تبحث في كينونتنا، وهي تفتش في هيئتنا وملابسنا «العمانية» ما يبدد حيرتهم عنا.

كنا نتباهى بالدشاديش العمانية البيضاء، والمصار المزركشة الملفوفة على رؤوسنا، كتيجان فخر، كما كنا نتفاخر بوصولنا إلى هذه الأرض المقدسة، الكثير من المقدسيين كانوا يعرفوننا بسماتنا، واحتفاؤهم بنا لا تصفه الكلمات، وجدنا عيونهم تفيض من الفرح، وحفاوتهم تستقبلنا في كل زاوية نيمم إليها.

كان مرشد العتبات، يستحثنا المسير، ويطلب منا عدم الاحتكاك بالجنود، حرصا على سلامتنا، وقال إنه سيأخذنا إلى مسجد البراق الذي عبرنا إليه من مدخل قريب من باب المغاربة، وصولا إلى السلم الهابط إلى داخل المسجد.

تقول الروايات: «إن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ربط دابته البراق في حائط هذا المسجد في رحلة الإسراء والمعراج»، وهناك على الحائط رأيت الحلقة الحديدية التي يقال إن البراق ربط فيها، ورأيت الرفاق يتناوبون على الإمساك بها، وأخذ الصور التذكارية.

وصلينا في مسجد البراق مرة ثانية، وابتهلنا بما تيسر من الدعاء، وكنت أحوم ببصري في المكان، متنسما روحانية المكان، وقدسية البقعة التي أنا فيها، لكني اعترف أنها لم تكن بروحانية المسجد الأقصى.. لكن المكان بشكله العمومي كان يبعث بالسكينة والطمأنينة، رغم القبضة الأمنية المحكمة لجنود الاحتلال، وتطويقهم المكان من كل ناحية.

في قبة الصخرة، التي انتقلنا إليها بعدئذ، كان بهاء المكان وفخامته مسيطرا علينا، ونحن ندور حول الصخرة المُشرفة التي عرج منها النبي محمد صلى الله عليه وسلم في رحلة الإسراء والمعراج، هنا في الصورة المتواردة في كل حكايات القدس، وأحاديثها، يبدو هذا المكان الأبرز والأكثر حضورا، ولا يكاد تذكر القدس وتفتح صورها، دون أن تكون قبة الصخرة حاضرة.

استحضر وصف ابن بطوطة لها، وأنا أتذكر صورتها: «أما قبة الصخرة فهي من أعجب المباني وأتقنها وأغربها شكلًا، قد توافر حظها من المحاسن، وأخذت من كل بديعة بطرف، وهي قائمة على نشر في وسط المسجد، يصعد إليها في درج رخام، ولها أربعة أبواب، والدائر بها مفروش بالرخام أيضًا، محكم الصنعة، وكذلك داخلها. وفي ظاهرها وباطنها من أنواع التزويق، ورائق الصنعة ما يُعجز الواصف، وأكثر ذلك مغشى بالذهب، فهي تتلألأ

نورًا، وتلمع لمعان البرق، يحار بصر متأملها في محاسنها، ويقْصر لسان رائيها عن تمثيلها».

نطوف في المكان.. ومرشد العتبات المقدسة يخبرنا عن مكونات القبة، وعن الصخرة المعلقة دون عمد، وعن القباب الموجودة فيه، والنقوش التي يحتويها، كان يتعمق في تفاصيل الصورة، ويخبرنا عن كل جزء نأتي عليه، كانت مجموعة من النساء قد توزعن داخل القبة، بين مصلية ومبتهلة.

عند ركن صغير، أشار إلينا مرشد العتبات إلى المكان الوحيد الذي يمكن فيه لمس الصخرة، ورأيتني وقد وقفت مع الرفاق في طابور أنتظر دوري للمس الصخرة، وتنسم العطر العالق منها.

وكأنني أشتم رائحة الحجر الأسود في الكعبة المشرفة، رائحة لا تخطئها أنفٌ تنسمت عطر مكة وعبيرها، فمسحت بيدي على وجهي، وأنا أتنفس عبق العطر وشذاه.

لا تتركونا وحيدين، لا تتركونا

عند الصخرة المشرفة، نزلنا نصلي ونتذكر معراج خاتم الأنبياء، كان المكان ضيقا وبالكاد اتسع لجمعنا، وقفت في البدء أنظر لتكوين الصخرة ومعجزة تعلقها بين السماء والأرض بدون أعمدة ـ كما قال مرشد العتبات المقدسة ـ، لكنني لم أستطع تأكيد هذه الفرضية، وتأييد هذا القول، بكل ما يحمله من تضاد مع المتعارف عليه، والقدسية التي تحاط بالصخرة باعتبارها نقطة المعراج إلى السماء.

أتبتل في مكاني، أطلق لمناجاتي العنان، وأرخي زمام الدعاء، وتسبقني الكلمات، أشعر بنفسي وحيدا في مصلى الصخرة، لا أحد سواي، وحدي وهذه الدموع التي تسبقني لتغسل حروف الكلمات، وتطهرها من وعثاء الحياة، أرتفع نحو السماء، وأعرج كما الصخرة معلقا، لا أرض تقلني ولا فضاء يحدني، أطير، أصير غيري في التجلي.

لا أرى أحدا ورائي.. لا أرى أحدا أمامي

كل هذا الضوء لي، أمشي. أخف. أطير

ثم أصير في التجلي، تنبت الكلمات

كالأعشاب من فم أشعيا النبوي:

«إن لم تؤمنوا لن تأمنوا».

***

أرفع بصري، أرى الصخرة تظلني، أمد يدي نحوها، أمسح عليها، ثم أنسل بخفة، من المكان، وأحضن موجة الهواء في الخارج، وأعود لأشتم فيها نسيم القدس، ودروبها العتيقة، وحاراتها الضيقة، وأنفاس الدكاكين..

نجتمع لصورة تذكارية، يتطوع مرافقنا المصور محمد عطية لأخذها من زوايا مختلفة، نتقاسم معه فرح التقاط الصور، ونطلب صورا أخرى بمقاساتنا، بين العتبات المقدسة.

ـ أريد قبة الصخرة، وهذه الأعمدة تحيط بي كإطار للصورة التي تأخذها لي.

هكذا اخترت الصورة التي أود أن أحملها من هذا المكان، لكن حمود الطوقي أشار إلى زاوية أخرى تبدو أجمل من سابقتها، «قف هنا، وسألتقط لك صورة جميلة»، قالها لي، وهو يشير إلى درج يؤدي إلى باحة المسجد الأقصى المجاور لمسجد القبة، هناك أقف، وبعدها كانت الصورة جامعة لكل رفاق الرحلة.

في البرنامج التالي، كنا نجلس مع الشيخ عبدالعظيم سلهب رئيس مجلس الأوقاف الإسلامية في القدس، القائم بأعمال قاضي القضاة، والشيخ محمد حسين المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية، في حديثهما نحونا كانت كلمات الشكر والتقدير تتناسل، لتنسكب علينا من كل حدب وصوب، قالها باعتزاز بالغ: «شكرًا لأنكم جئتم إلينا، وعشتم بعض معاناتنا، وصبرنا على الاحتلال وممارساته بحقنا في هذه الأرض المكافحة الصامدة، إلى أن يتحرر كل شبر منها».

كانا يرميان بحديثهما ذلك إلى تفنيد الفتوى التي أصدرها بعض علماء الدين، بشأن «تحريم زيارة فلسطين وهي تحت الاحتلال»، قال لنا مفتي القدس إن فتوى التحريم «تقدم خدمة مجانية للاحتلال الإسرائيلي الذي يريد عزل المدينة المقدسة عن محيطها العربي والإسلامي، ولا يرغب برؤية أي وجود عربي أو إسلامي في القدس، ويضع كل العراقيل والعقبات أمام وصول الفلسطينيين والعرب والمسلمين والمسيحيين إلى مقدسات المدينة، ويعمل في نفس الوقت على تكثيف الوجود اليهودي لتهويد المدينة المقدسة والاستيلاء على مقدساتها».

وكان في حديثه ذلك على صواب، تعايشنا معه منذ دخولنا الأراضي المحتلة، وتجوالنا في المدن والقرى الفلسطينية، فعلى الرغم أننا لم نكن نحمل أي وعود أو مساعدات مادية، إلا أن وجودنا بينهم، ومعايشتنا لهم، وكلمات التضامن التي ألقيناها على مسامعهم كانت زادهم في مواصلة الكفاح والنضال حتى تتحرر فلسطين «من النهر إلى البحر»..

في ساحة الحرم القدسي، قال لنا رجل فلسطيني بعدما عرفنا بسماتنا وملامحنا، «لا نريد منهم أكثر من أن يأتوا إلينا ويطمئنوا على أحوالنا»..

كانت أخبار التضامن العربي والإسلامي مع القدس، مخيبة لآمالنا، لم تتجاوز وعودا، وخطابات رنانة في مؤتمرات القمم العربية والإسلامية، فصندوق القدس الذي كان قد أنشأه المؤتمر الإسلامي خالٍ إلا من الأصفار، والحصار في المعابر على أشده بصمت عربي إن لم يكن بموافقتهم.

وحيدون، نحن وحيدون حتى الثمالة

لولا زيارات قوس قزح

لنا أخوة خلف هذا المدى.

إخوة طيبون. يحبوننا. ينظرون إلينا ويبكون.

ثم يقولون في سرِّهم:

ليت هذا الحصارَ هنا علنيٌّ.. ولا يكملون العبارةَ:

لا تتركونا وحيدين، لا تتركونا.

خسائرُنا: من شهيدين حتى ثمانيةٍ كُلَّ يومٍ.

وعشرةُ جرحى

وعشرون بيتًا.

وخمسون زيتونةً...

***

كان البرنامج التالي لزيارة القدس يشير إلى زيارة أحد مستشفيات المدينة المقدسة وهو مستشفى مار يوسف، والاقتراب من نضال الكوادر الطبية في إسعاف وعلاج المرضى الفلسطينيين، والمصابين في المصادمات مع قوات الاحتلال، والتعرف على الإمكانيات الفنية والتجهيزات الطبية المتوافرة لديهم، ونقل معاناتهم من نقص الكوادر والأدوية...

شخصيا وبعد زيارتين صباحيتين إلى مستشفى المقاصد الخيرية الإسلامية ومستشفى المطلع وتكرار الصورة النضالية في المستشفيين، وددت

لو اكتشفنا شيئا آخر في هذه المدينة، التي قد لا تتاح مجددا فرصة زيارتها، وليس من الهين أن تكون في القدس، لبضع ساعات وتشغلها في التعرف على جانب واحد.

كنت أريد التجول ـ مثلا ـ في المدينة القديمة، والعبور بين الدكاكين، أو كما قال عاصم الشيدي، نشعر بصوت فيروز وهي تصدح برائعتها «القدس العتيقة» ونمتلئ معها بالحنين الملوَّن بالأمل، ومثلما تمنيت أنا تمنى الكثير من الرفاق هذه الأمنية المغلفة بعشق المدينة، وحب التجوال فيها، والتعرف عليها أكثر من كل الزوايا.

وجدت موافقة من قبل عبير زياد الفتاة الفلسطينية التي جاءت لرفقتنا، فيما تبقى من برنامج زيارة القدس، تطوعت عبير لأخذنا في جولة بالمدينة، ريثما ينتهي الرفاق من زيارتهم المقررة لمستشفى مار يوسف، وطلبت أن نكون أربعة أشخاص فقط، نظرا لأنها ستأخذنا بعدئذ بسيارتها إلى مكان اللقاء التالي.

اكتشفت في الدقائق التي صحبتنا فيها عبير، معرفتها بكل تفاصيل المدينة التاريخية والتراثية وآثارها وشواهدها، وتعرفنا عليها كونها باحثة في آثار القدس، ويتم الاستعانة بها لتعريف الوفود السياحية الزائرة عن المدينة وتاريخها وكل ما يتعلق بها، وهي متحدثة جيدة، وتمتلك رصيدا ضخما من الثقافة والفكر.

كنا أنا وعاصم الشيدي وحاتم الطائي في صحبة عبير، بعدما انسحبنا عن الرفاق على أن نلحقهم في حفل الغداء المقام على شرفنا من قبل محافظ القدس، بعد جولتهم في مستشفى مار يوسف.

ندخل من باب القطانين، نَشْتَمُّ روائح صلاح الدين والعابرين إلى القدس، وأمجادا خطت على هذه الدروب، وبين هذه الأزقة، في كل ركن هنا حكاية، تنبئ عن تاريخ عريق، ومجد ضارب في القدم، دماء سالت هنا، ومعارك اشتعلت، جاء مستعمر ورحل مدحورا بعد حين من الزمن، وكل احتلال آل إلى الرحيل، وبقيت القدس، كما هي أول مرة عربية، تتعايش في كنفها الديانات السماوية، ويلتقي المسلم بالمسيحي واليهودي، دون أن يضاد أحدهم الآخر. فهنا الكل يتوجه وفق ديانته، دون أن يتضاد مع الآخر.

تتحاذى المنازل، في عقبة الخالدية، تشير عبير إلى منزل فيها، «هذا بيتنا»، وتتوقف لتنادي أمها، تطل الأم من الشرفة العلوية، تحيينا بابتسامة، وتطلب منا الدخول لتناول القهوة، نعتذر لها بلطف، ونواصل مسارنا.

تخبرنا عبير عن عائلتها، وعن صمودهم في هذا المكان، رغم إغراءات الاحتلال ومحاولاته لشراء المنزل بأي مبلغ، كحال الكثير من البيوت العربية في المدينة القديمة، وإعطائها للمستعمرين اليهود، في سعي إسرائيلي إلى تغيير المعادلة الديموغرافية للسكان العرب الفلسطينيين في القدس لصالح السكان اليهود الإسرائيليين.

تقص عبير علينا شيئا من ذكرياتها في عقبة الخالدية، يومها كانت في العاشرة من العمر، وقد وقعت حادثة مقتل يهودي في الحي على أيدي رجال من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، فاستنفر الاحتلال كل قواته، وهجموا على الحي، بحثا عن الجناة، وصاروا يطلقون النار عشوائيا على كل من يصادفونه في طريقهم من العرب، واقتحموا البيوت، واقتادوا كل من فيها.

تتذكر عبير هلع أسرتها، ووالدها على وجه الخصوص، وكيف طلب منها

أن تهرب بنفسها، ولا تلتفت لما يحدث خلفها، وحينما كان الاحتلال يقتاد والدها، كانت عبير تجري وجلة إلى المجهول، وصوت الرصاص يصم أذنيها، والخوف يسكن قلبها.. وانزوت بعيدا تبكي المصير الذي سيؤول إليه والدها.

تقول لنا عبير بكل فخر: إن زوجها قضى سنوات أسيرا في سجون الاحتلال، قبل أن يفرج عنه، وهي تتباهى كما الكثير من شبان المدينة بمشاركتهم في النضال، ومقاومة الاحتلال، ويعتبرون القدس والأراضي المحتلة أمانة في أعناقهم..

***

ونحن نسير داخل أحياء المدينة القديمة، بدا لنا الحال المأساوي الذي آلت إليه، وكيف أن اليهود تغلغلوا فيها، وأصبحوا ضمن سكانها، يضطهدون جيرانهم العرب، ويمارسون كل أنواع الأذى، من أجل ترحيلهم، والاستيلاء على هذه المساكن.

يخرج مستعمر يهودي من أحد الدور القريبة منا، يرمقنا بنظرة احتقار، نبادله بأشد منها، ثم يمضي في طريقه، تخبرنا عبير عن استيلاء قوات الاحتلال على منازل الكثير من الفلسطينيين، وتحويلها إلى ملكية المستعمرين، ومحاولات تهويد القدس، وتضييق الخناق على السكان عبر فرض ضرائب ومخالفات بناء طائلة، تؤدي إلى هدم المنازل أو انتزاعها بالقوة، في حالة عدم السداد، ويصاحب ذلك وضع العراقيل والمعوقات لإصدار تراخيص البناء للفلسطينيين.

وقامت سلطات الاحتلال بتحويل ما يزيد على40 % من مساحة القدس

إلى مناطق خضراء يمنع البناء للفلسطينيين عليها، وتستخدم كاحتياط لبناء المستعمرات كما حدث في جبل أبو غنيم، وقد دفعت هذه الإجراءات إلى هجرة سكانية عربية من القدس إلى الأحياء المحيطة بالمدينة، نظرا إلى سهولة البناء والتكاليف، وهذا ما تهدف إليه إسرائيل.. لكن ذلك لا يمنع من وجود مجموعة كبيرة من السكان الفلسطينيين الذين قاوموا كل إغراءات الاحتلال، وتحدوا كل ممارساته، وبقوا في منازلهم، متمسكين بهويتهم، ومناضلين للبقاء..

يا سيداتي.. سادتي!

يا شامخين على الحراب!

الساق تقطع.. والرقاب

والقلب يطفأ ـ لو أردتم ـ

والسحاب..

يمشي على أقدامكم ..

والعين تسمل، والهضاب

تنهار لو صحتم بها

ودمي المملّح بالتراب!

إن جفّ كرمكم،

يصير إلى شراب!

والنيل يسكب في الفرات،

إذا أردتم، والغراب..

لو شئتم.. في الليل شاب!

لكنّ صوتي صاح يوما:

لا أهاب

فلتجلدوه إذا استطعتم..

واركضوا خلف الصدى

ما دام يهتف: لا أهاب!.

باقون ..

نحرس ظل التين والزيتون

داخل أحياء المدينة القديمة تكشفت لنا صورة المأساة التي يعيشها السكان، فالكثير من منازلها آيلة للسقوط، نتيجة الحفريات تحت أساساتها. وكذلك الحفريات التي تجري في منطقة سلوان جنوبي المسجد الأقصى بأعماق كبيرة وبمساحة واسعة شملت عين جيحون اليبوسية التي يعود تاريخها إلى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد.

توقفت بنا عبير، بين طريق القرمي وعقبة السرايا، كانت الدعامات الحديدية تسند جدران المنازل، وتحفظ ما تبقى من الاندثار، وكانت اللوائح المتدلية منها، تحذر المارين باللغات الثلاث ـ العبرية والعربية والانجليزية ـ من «جدار خطر».. فيما كان مرافقنا مرشد العتبات المقدسة يشرح لنا عن تأثير الحفريات التي تجريها سلطات الاحتلال في المنطقة المسماة «الحوض المقدس» والتي تشمل المسجد الأقصى المبارك بمساحة 144 دونمًا والقسم الجنوبي من الحي الإسلامي في البلدة القديمة وقرية سلوان الواقعة جنوبي المسجد الأقصى المبارك.

معظم هذه الحفريات تركزت غربي سور المسجد الأقصى المبارك من باب الغوانمة شمالًا إلى باب المغاربة جنوبًا مخترقة المناطق تحت أساسات الأبنية الإسلامية التاريخية، فخلخلت هذه الأساسات وتسببت في تشققات الأبنية التاريخية الأثرية وجعلتها في حالة خطر دائم، وأخطر هذه

الحفريات هي التي تجري حاليًا تحت باب المغاربة.

تصادفنا مع بعض أهالي حي القرمي العريق، الذين تجمعوا حولنا ليحكوا عن مأساة الحي، والخطر المحدق بهم، يقول أحدهم: إن الكثير من المنازل المتداعية هنا، تبعث شعورا عميقا بالخطر على من فيها أو يمر بجوارها.

ولنكون قريبا من الصورة، يطلب منا الدخول إلى أحد المنازل لمعاينة الآثار التي أحدثتها الحفريات، والتشققات الظاهرة على جدران المنزل وأساساته.

في الداخل تأهبُ للرحيل، والبحث عن مكان آمن، وقريبا من الأمتعة المستعدة للسفر، تجلس عجوز وهي تتكىء على ذكرياتها في المكان، وتناظر جدران المنزل المتشققة، حيث حكاية عمرها مرسومة في الأرفف، وبين زوايا البيت.

تخبرنا بصوت واهن، إنها باقية هنا، تحرس البيت من سرقة الاحتلال له، في حال مغادرة جميع سكانه، «حتى لو خر السقف، سأبقى هنا ولن أدعهم يأخذون البيت، أفضل أن أدفن فيه، عن الرحيل عنه».

إنا هنا باقون

فلتشربوا البحر

نحرس ظل التين والزيتون

ونزرع الأفكار، كالخمير في العجين

برودة الجليد في أعصابنا

وفي قلوبنا جهنم حمرا

إذا عطشنا نعصر الصخرا

ونأكل التراب إن جعنا .. ولا نرحل

وبالدم الزكي لا نبخل .. لا نبخل .. لا نبخل

هنا .. لنا ماض .. وحاضر .. ومستقبل

كأننا عشرون مستحيل.

في طرقات الحي، كان مجموعة من الصبية يلعبون، يقذفون ضحكاتهم في المكان، دون أن يأبهوا بالخطر المحدق بهم، والمعاناة التي يعيشونها يوما بعد آخر، وكما في الخليل ونابلس وبيت لحم، لا يخشى هؤلاء الأطفال جنود الاحتلال، هم يتحدثون بكل عزة وشموخ عن وطنهم، وعن تمسكهم بأرضهم، وعدم التفريط فيها، وتركها للمستعمر، مهما كانت الإغراءات، تقرأ في وجوههم حكاية فلسطين الأبية، العصية على الانكسار والسقوط، وتروي ألسنتهم جزءا من المأساة التي يعيشونها، لكنهم يؤكدون قدرتهم على الانتصار ولو طال الزمان.

سيمضي زمانٌ طويلٌ ليصبح حاضرنا ماضيًا مثلنا..

سنمضي إلى حتفنا، أولًا، سندفع عن شجرٍ نرتديه...

وعن جرس الليل، عن قمر، فوق أكواخنا نشتهيه

وعن طيش غزلاننا سندافع، عن طين فخارنا سندافع

وعن ريشنا في جناح الأغاني الأخيرة، عما قليل

تُقيمون عالمكم فوق عالمنا: من مقابرنا تفتحون الطريق.

نمضي في طريقنا، تتوقف عبير لتخبرنا عن مقام السيد القرمي، وقبره في الداخل، حال المكان لا يختلف عن حال باقي البيوت في الحي، بدءا من عمارة الدولة البدرية، وعمارة اللؤلؤية، وهذه المباني كانت تستخدم كمدارس دينية منذ العهد المملوكي الأيوبي، لكن ضعف الإمكانيات المادية لديهم، تجعلهم يعتمدون على الدعائم الحديدية والأخشاب، كحلول مؤقتة للحفاظ على المباني من الاندثار.

ونسألها عن صندوق القدس، وكأننا نعرف إجابتها مسبقا، تنظر نحونا، ويعجز الكلام عن قول كل شيء، فيما يتحدث مرشد العتبات المقدسة عن الألم الذي يختلج في صدره من كم الوعود التي تصل إليهم، من دول عربية وإسلامية في إعادة ترميم المدينة القديمة، ولكنها تظل وعودا تذروها الرياح.

نواصل المسير، تطالعنا لافتات تشير إلى اسم المكان أو تاريخه، أو تروي سيرة قاطنيه من الأولين، فهذا «مسجد ولي الله سيدي محمد القرمي»، وعلى مقربته «بيت الحاخام الكبير المشهور داود بن شمعون من الرباط في المراكش (1826 ـ 1880) كان معينا للفقراء والمحتاجين والأيتام والأرامل. أسس طائفة اليهود المغربيين في أورشليم وأدار شؤونها».. قبل أن نعبر الطريق الفاصل بين سوق باب خان الزيت وسوق العطارين.

سوق العطارين هو أحد أقدم الأسواق الواقعة داخل أسوار البلدة القديمة، ويتميز بسقف مقوس يعود الى الفترة المملوكية يغطي السوق كله. وقد اشتق

السوق اسمه من المحلات التجارية العديدة التي تبيع البهارات والأعشاب الطبية المصنوعة من مواد وألوان طبيعية.

بموازاة السوق، لاح لي مقر بطريركية الأقباط الأرثوذكس، ورأيت مجموعة من اتباع البطريركية حاملين الصليب الخشبي على أكتافهم، في هيئة تكمل صورة التمازج الديني والتداخل العقائدي بين المسلمين واليهود والمسيحيين.. فالقدس هي مهد الديانات ومهبط الرسالات، وهي رمز التعدّدية الدينية، لكن إسرائيل لا تريد لها ذلك، فهي تُحاول أن تجعل القدس مدينة يهودية وتفعل كل ما في وسعها من أجل طمس هويتها الإسلامية والمسيحية، فالمسلمون والمسيحيون على حد سواء في المدينة يتعرّضون لحرب تطهير عرقي واضطهاد من خلال إقامة المستوطنات ومصادرة الأراضي والمنازل وحملات الاعتقالات وحفريات تحت المسجد الأقصى.

تتوقف عبير لتنقل لنا بعضا مما يشوب تاريخ القدس من تشويه، وطمس للحقائق التاريخية، وهي تخالف الكثير من الأفكار السائدة، برؤية متقدمة، مبنية على الدراسة والتحليل، والوقوف على الوقائع التي تثبت صحة ما تذهب إليه، أو بصورة أقرب تخالف ما يتردد على ألسنة العوام.

في سوق القطانين، ونحن نشرب عصير الرمان البارد، حدثتنا عبير عن الرواية التاريخية التي تقول، إن سيدنا عمر بن الخطاب، وبعد أن تسلم مفاتيح بيت المقدس من البطريرك صفرونيوس، وحينما كان يتفقد كنيسة القيامة، وأدركته الصلاة فالتفت إلى البطريرك وقال له أين أصلي، فقال «مكانك صل» فقال: ما كان لعمر أن يصلي في كنيسة القيامة فيأتي المسلمون من بعدي ويقولون هنا صلى عمر ويبنون عليه مسجدا. وابتعد

عنها رمية حجر وفرش عباءته وصلى.

تقول عبير معلقة على بناء مسجد عمر في المكان الذي يشاع أن الفاروق صلى فيه، أن عمر خرج من الباب القديم للكنيسة الذي كان قائما في زمنه، وليس الباب الحالي الجديد، وقد مشى عمر خطوات من الباب فصلى، فتكون صلاته في هذا المكان، وأشارت إلى أحد المحلات التجارية، وقالت هنا يفترض أن يكون عمر قد صلى.

كنت أستمع إلى تحليل عبير زياد مندهشا من واقعيتها في التفكير، ومكبرا لدورها ومحاولاتها الدؤوبة نفض الغبار عن تاريخ القدس، وتصحيح التشويه الذي شابه، ولذلك لا عجب أن تثير آراؤها حنق المؤسسة الإسرائيلية، ومضايقتها، حد طردها بضغط صهيوني من عملها كمديرة للقسم العربي في متحف قلعة داود بالقدس، بسبب مقالات وكتابات عن مدينة القدس.

لكن صوت عبير ظل مجلجلا، كما مآذن القدس، وكنائسها، شامخا يدافع عن الحقيقة، ويفند الأكاذيب الإسرائيلية، والأفكار التاريخية التي يحاولون تثبيتها.

سأصنع نفسي بنفسي

وأختار منفاي موسوعة لفضاء الهوية

منفاي خلفية المشهد الملحمي

أدافع عن حاجة الشعراء

إلى الغد والذكريات معًا

وأدافع عن شجر ترتديه الطيورُ

بلادًا ومنفى

وعن قمر لم يزل صالحًا لقصيدة حب

أدافع عن فكرة كسرتها هشاشة أصحابها

وأدافع عن بلد خطفته الأساطير.

***

نسير في طريق الآلام، نقتفي خطوات يعتقد المسيحيون أن السيد المسيح سلكها من باب الأسباط إلى كنيسة القيامة، وحمل صليبه بالكامل طوال الطريق، بعدما قام اليهود بتعذيبه وصلبه ـ

من المكان الذي ذكروا أن المسيح حمل الصليب الكبير وقطع الطريق كله وقد أعياه ثقل الصليب وأوجعه، حتى الصخر المقدس في كنيسة القيامة الذي غسلت عليه جثة المسيح، نفتش عن ذاكرة المكان، ونستنطق تاريخه، وكأننا نعبر فيه قبل نحو ألفي عام.

ندخل كنيسة القيامة التي بنتها الملكة هيلانة والدة الملك قسطنطين عام 330 ميلادية، وقبل أن نلج بوابتها، تشير عبير زياد إلى السلم الخشبي على حافة النافذة التي يتعذر الوصول إليها فوق مدخل الكنيسة، وتكشف سر وجوده هناك، هو هناك كعلامة على «الوضع الراهن»، الذي قضت به المحكمة في عام 1853م، والمقصود بالوضع الراهن هو الترتيبات المعقدة بين الجماعات المسيحية والأسر المسلمة.

«الوضع الراهن» في كنيسة القيامة يجسد أبلغ معاني الوحدة الوطنية

على أرض القدس، فمنذ أن فتح صلاح الدين الأيوبي القدس عام 1187م ومفاتيح تلك الكنيسة تحملها عائلة مسلمة هي عائلة جودة، بينما يقوم على مهمة فتح باب الكنيسة بشكل يومي عائلة مسلمة أخرى هي عائلة نسيبة.

قبالة باب الكنيسة، كان يقوم مسجد عمر بن الخطاب، والذي دحضت عبير مكان صلاة عمر بن الخطاب فيه، وأشارت إلى الحكاية التاريخية، التي تعود إلى عهد صلاح الدين الأيوبي، حيث خشي أن يعود الصليبيون متنكرين في زي الرهبان ويدخلوا كنيسة القيامة، بعدما قام بتحرير المدينة المقدسة منهم، وكان حينئذ لكنيسة القيامة بابان، فقرر صلاح الدين غلق أحدهما وهو مغلق منذ ذلك الوقت، وأبقى على الآخر مفتوحا، وهو المستخدم حاليا في الدخول والخروج من الكنيسة، وقد حاولت سلطات الاحتلال الإسرائيلية فتح باب آخر للكنيسة بزعم تسهيل الدخول والخروج، فرفض الرهبان وتدخل العاهل الأردني الراحل الملك حسين لوقف هذا الأمر، لأن إسرائيل كانت تريد بابا للكنيسة تحتفظ هي بمفاتيحه.

كل باعتقاده وإيمانه، ينسج الحكاية التي توافق هواه، وتمتزج الأسطورة بكينونة المكان، وتتداول الحكاية حد التصديق بأحداثها، حول صلب المسيح، وما صاحبها من أحداث..

أمضي في جنبات الكنيسة وأركانها، والليل ينزل ستارته، أستعجل الرفاق في العبور السريع، وأمام بكائيات جموع المسيحيين القادمين من بقاع شتى على الصخر «المقدس» حيث سُجِّيتْ جثة المسيح، أتوقف لأتأمل قليلا المشهد، قبل أن أندس مع الخارجين من الكنيسة، فيما روحي تتلو على مسامعي «مَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ»..

حزينةٌ حجارة الشوارع

حزينةٌ مآذن الجوامع

يا قدس، يا جميلةً تلتف بالسواد

من يقرع الأجراس في كنيسة القيامة؟

صبيحة الآحاد..

من يحمل الألعاب للأولاد؟

في ليلة الميلاد..

يا قدس، يا مدينة الأحزان

يا دمعةً كبيرةً تجول في الأجفان

من يوقف العدوان؟.

صعود الفتى
العربي إلى الحلم والقدس

إبان خروجنا من كنيسة القيامة، ومحاذاتنا باحة المسجد العمري، أطللنا على المشهد الماثل بين الكنيسة والمسجد، ونحن نسترجع الصورة المقاربة لها في مكان آخر من فلسطين المحتلة له قدسية استثنائية، حيث المسجد العمري يقابل كنيسة المهد في بيت لحم، والحكاية عن بناء المسجد في القدس، تقارب حكاية بناء المسجد في بيت لحم.. وفي الحالتين هناك تعايش ووئام بين المسلمين والمسيحيين..

كان الليل قد أرخى سدوله، وبدأت الأضواء تدب في المنازل والدور والمحلات وفي الطرق، وتماهت الصور حد أننا لم نفرق من البعيد بين صورة الدير وصورة المسجد، وبين العابرين في الدروب من المسلمين والمسيحيين واليهود، لكننا حين مضينا في الطريق، وضح المشهد، وبانت الصورة بكل تفاصيلها وملامحها، كنت أمضي وأنا أشاهد عددا كبيرا من اليهود يحثون المسير في اتجاه واحد، ورؤوسهم منكسة في الأرض، وكأنهم إلى نصب يوفضون.

أخبرتنا عبير زياد أن اليهود يسيرون في هذه الليلة «ليلة السبت» إلى حائط البراق، الذي يقع في الجزء الجنوبي الغربي من جدار المسجد الأقصى المبارك، وهذا الجدار يبلغ طوله حوالي (50 مترًا) وارتفاعه حوالي (20 مترًا)، وهو من الأملاك الإسلامية ووقف إسلامي، ويطلق عليه اليهود:

«حائط المبكى»، ويزعمون أنه الجزء المتبقي من هيكل سليمان، وهناك يمارسون طقوسا وصلوات تأخذ طابع العويل والنواح على الأمجاد المزعومة.

حائط البراق صار من أهم المعالم اليهودية، بل يعد رمزًا يهوديًا وطنيًا، ومزارًا ليهود العالم والنصارى المتصهينين، من قادة دول وزعماء وقساوسة، الذين يعتقدون أن المسيح لن يظهر ثانية إلا وسط مجتمع يهودي، وأنه لن يعود إلا في صهيون، ولذلك لا بد من تجميع اليهود، وإقامة صهيون حتى يظهر المسيح بينهم، كما يدعون.

أخذتنا عبير من الحي الإسلامي إلى أحد المباني المطلة على حائط البراق، كان الليل قد خيم، وأسدل ستاره، وقد لمحت قبلئذ، أحد اليهود المتعصبين على سطح أحد المنازل «المغتصبة» وهو يطلق صفيره وصرخاته تزامنا مع صوت الأذان الصاعد من منارة المسجد القريب.

لم يكن ذاك المشهد مستغربًا، في مدينة يمارس الاحتلال فيها، والمغتصبون اليهود، شتى أنواع الاستفزاز والمضايقة بحق الفلسطينيين في أرضهم ودينهم، وفي حياتهم ومعتقداتهم، وكل ذلك على مرأى جنود الاحتلال وأسماعهم.

كان اليهودي المتعصب، يهزأ بالأذان، ويطلق سخريته على وقعه، وجنود الاحتلال يواجهون أي فلسطيني يعترض على ذلك، ويعللون كذبا أن تصرفات اليهودي المتعصب تلك ومن على شاكلته، تدخل في إطار حرية الرأي والتعبير، وفي المقابل فإن أي استفزاز أو سخرية بحق ممارسات اليهود ومعتقداتهم، يجابهان بالعنف، وقد يوديان بصاحبها إلى السجن سنوات طويلة.

إنها ازدواجية المعايير، التي تمارسها سلطات الاحتلال، فتطبق أشد القوانين على الفلسطينيين، وتطلق يد المغتصبين اليهود ليعيثوا في الأرض العربية المحتلة فسادا، ولن تكون جريمة حرق المسجد الأقصى من قبل متطرف صهيوني، ادعت إسرائيل بعد حين أنه مجنون وقامت بترحيله إلى أستراليا، ربما حماية له من أي اعتداء وانتقام على جريمته، أول الجرائم الصهيونية بحق الفلسطيني وأرضه ومقدساته ولا آخرها.

سدّوا عليّ النور في زنزانة

فتوهّجت في القلب.. شمس مشاعل

كتبوا على الجدران رقم بطاقتي

فنما على الجدران.. مرج سنابل

رسموا على الجدران صورة قاتلي

فمحت ملامحها ظلال جدائل.

***

من سوريطل على حائط البراق، أمكننا رؤية المشهد البانورامي، لمجموعة كبيرة من اليهود وهم يؤدون طقوس «المبكى»، كانت الصورة مفزعة إلى حد كبير، إذ بدت لنا عن قرب أعمال الحفر الجارية منذ سنوات طويلة بحثا عن الهيكل المزعوم، وقريبا كانت مجموعة من المتشددين يجلسون فيما يشبه الحلقة التعليمية حول أحدهم وهو يشير إلى الخرائط الموضوعة أمامه، أخالها لساحة المسجد الأقصى، وهو يحدثهم عن التاريخ والجغرافيا التي صنعوها بأوهامهم، وزيفوا صفحاتها بأكاذيبهم.

حائط البراق كما شاهدته من مكاني، هو جزء من السور المحيط بالمسجد الأقصى وما حوله، لا يختلف عنه في شيء، وهو يمثل الجزء الجنوبي الغربي من السور ويجاوره مباشرة باب للمسجد هو باب المغاربة.

حدثتنا عبير عن حي المغاربة الملاصق للجدار الغربي للمسجد الأقصى المبارك، والذي قامت سلطات الاحتلال بهدمه بما فيه من آثار ومدارس ومساجد وتكايا وزوايا ومبان، وشردت أهله.. نسفوا المنازل المحاذية للحائط، وأقاموا أمامه ساحة كبيرة ليتجمعوا فيها، واستولوا على مفاتيح باب المغاربة، ولا تزال معهم حتى الآن.

كنا نشاهد جزءا من الحفريات المتعددة التي تجريها إسرائيل حول الأقصى منذ احتلالها الغاشم للقدس، كان أهمها تلك الواقعة في منطقة تسميها السلطات الإسرائيلية بالحوض المقدس، وتشمل المسجد الأقصى المبارك والقسم الجنوبي من الحي الإسلامي في البلدة القديمة، وقرية سلوان الواقعة جنوبي المسجد الأقصى المبارك، وتركزت معظم هذه الحفريات غربي سور المسجد الأقصى المبارك من باب الغوانمة شمالًا إلى باب المغاربة جنوبًا مخترقة المناطق تحت أساسات الأبنية الإسلامية التاريخية، مما تسبب في خلخلة الأساسات وتشقق الأبنية التاريخية الأثرية وجعلتها في حالة خطر دائم، وأخطر هذه الحفريات ما وقفنا عليه، من مكاننا المطل على حائط البراق، الواصلة تحت باب المغاربة، وهذه تهدف إلى توسيع ساحة الصلاة لليهود أمام حائط البراق وهدم ما تبقى من آثار إسلامية في تلك المنطقة، وتركيب جسر حديدي بدلًا من الطريق الترابي يبدأ من منطقة التجمع وينتهي عند باب المغاربة.

ومع حفريات باب المغاربة، تقوم إسرائيل بمشاريع عدوانية أخرى، حيث بلغ عدد الحفريات التي تجريها سلطات الاحتلال في أنحاء فلسطين عشرين حفرية على الأقل، كانت برامجها وأهدافها واضحة وجلية للمتخصصين، وعندما كانت تكتشف أية طبقة من الآثار الإسلامية كانت تلقى الإهمال والضياع والتدمير أثناء البحث في طبقات أعمق وأقدم.

كانت الصورة الماثلة أمامي تقول الكثير من الوجع والألم، كنت أقرأ بعض سطورها في صوت عبير وهي تحدثنا عن معلم تاريخي سقط هنا، أو خيانة تمت هنا، وعن حكاية الجنود المدججين بالأسلحة الذين يقتحمون الأحياء السكنية، ويفرضون عليها طوقا من الحصار، بحجج البحث عن مطلوبين، أو مصادرة أملاك المواطنين.

نعود للبلدة القديمة، والتجوال في الحي الإسلامي بحاراته المتداخلة، بدءا من حارة السعدية وحتى حارة باب حطة وحارة الواد، أشاهد لافتات للمدارس اليهودية في البيوت التي صادرتها إسرائيل من سكانها الأصليين، وفي الطريق يتدلى علم إسرائيلي كبير من أحد البيوت العالية، تخبرنا عبير عن حكايته: «هذا بيت شارون اشتراه من رجل مقدسي، بشكل سري».. وتواصل سرد الحكاية: حين عرف الناس بخيانة المقدسي، غضبوا عليه، ورفضوا أن يصلى عليه حين وفاته في المسجد الأقصى..

ورغم أن وجود العلم الإسرائيلي في البلدة القديمة، ليس غريبًا، إلا أن الخيانة حين تكون من أهلها، تبدو قاسية جدًا، ففي الوقت الذي يرفض الكثير من المقدسيين بيع منازلهم، بأسعار خيالية، ويرفضون كل الضغوط التي تمارس عليهم، ويلازمون بيوتهم ولو خر عليهم السقف، وتزلزل بنيانها، لا

يفرطون بشبر واحد منها، يظهر من بينهم من يوجد موطئ قدم لجنود الاحتلال والمستوطنين ليعيثوا في البلدة القديمة الفساد.

هذا نشيدي

وهذا صعود الفتى العربي إلى الحلم والقدس...

في شهر آذار تستيقظ الخيل.

سيّدتي الارض!

والقمم اللولبيّة تبسطها الخيل سجّادة للصلاة السريعة

بين الرماح وبين دمي.

نصف دائرة ترجع الخيل قوسا

ويلمع وجهي ووجهك حيفا وعرسا.

***

تجري طفلة صغيرة في دروب البلدة القديمة، وأجري أنا نحوها، أمد لها ذراعي، وتفتح هي ذراعيها كطائرة تهم بالتحليق، تقفز من مكانها، وأحملها عاليا، ثم تتلاقى ضحكاتنا، ونمضي معا في دروب القدس العتيقة.

***

هذه القدس أيها المثقل بالحلم، المسكون بصورتها.. مندفعًا إليها بالحنين الذي يتلبسك منذ أن وطئت أرض فلسطين، وعبرت جسر الملك حسين، لم يكن الوصول إليها، والصلاة في أقصاها أمرًا سهلا، لكنك في الآخر وصلت

إليها، وصليت صلاة خالدة في ذاكرتك، ما تنفست الحياة.

كم من الحكايا التي ستصوغها عن هذه اللحظة الخالدة، وكم من الصفحات ستمتلئ بحكايتك، أنت الذي ما برحت تذكر حادثة، إلا وقفزت حادثة أخرى إلى مخيلتك، تبسط ملامحها، وتنشر أشرعتها، علك تمخر عبابها، وتمضي مستذكرا الشخوص والأمكنة التي طفت بها!.

هذه القدس، دمعة حائرة، لا تعلم في أي مآق ستسيح، وإلى أي قلب ستشكو عذابها، وتسرد آلامها، تقف على ناصية الطريق، تنظر إليها بصمت، لا تقوى على تبيان كينونته، أمن دمع القدس، أنت تصمت، أم من حالك وحال الأمة الإسلامية والعربية التي أغمضت جفونها، وراحت في سبات عميق، لا تسمع ولا ترى ولا تتكلم.

وكما دخلت القدس من باب الساهرة، مدفوعا بالحنين.. خرجت من باب العمود بذات الحنين الذي لم يهدأ، رأيتني أجري على السلم الواصل إلى شارع نابلس، أفتح ذراعي للريح، وأطلق روحي تحلق عاليًا في المكان، وأنا أحتضن ضحكة فرح حطت قريبا مني، أرفع دالية الطفلة المقدسية عاليًا، تبسط مثلي ذراعيها، وتحتضن موجة الفرح، لا أمشي، أطير، أصير غيري في التجلي. لا مكان ولا زمان.

أعود لسيرتي الأولى، أتذكر وقبل أن أودع ثرى الأقصى، وصية أحدهم أن أحمل له حجرًا من القدس، لحظتها رأيت رفاق الرحلة يهرعون إلى الحجارة، وكأنهم قرأوا رغبتي، هم مثلي يحملون حجارة من القدس، تذكارا للزيارة، أقترب من سور المدينة، أفتش فيه عن حجارة بلون القدس، ورائحتها، وبعض من تاريخها، حين سبكت حوافر الخيل تربتها، وعلا وطيس المعركة

قرب أسوارها، ثم أنتزع من السور المحيط بالبلدة القديمة حجرين تذكارا لي، ولمن طلب مني.. وأمضي فرحا.. رغم ألم الفراق.

تودعنا عبير زياد، بعدما استكملت مهمتها معنا، أطلق آخر ضحكاتي مع دالية، قبل أن تلحق بأمها، وأشير إليها كما أشرت للقدس بتلويحة وداع، يسكنها أمل بالرجوع إلى هذه المدينة، وأمل أكبر بأن ترجع القدس لنا..

كانت القدس تحتوينا بكل جهاتها، وتسكننا بكل التفاصيل والملامح التي مررنا عليها، كانت صفحات التاريخ تبسط سطورها، في كل زاوية مررنا بها، وكل شارع وقفنا عليه، وعند كل بناء كان ثمة علم فلسطيني مخبوء، ينتظر أن يعانق الريح، ويرفرف بسلام..

أخذتنا دروب القدس والبلدة القديمة، وحكايات عبير وسردها الممتع عن برنامجنا التالي فيها، فتأخرنا عن موعدنا في معهد إدوارد سعيد الوطني للموسيقى في القدس، ساعة أو تزيد قليلا كانت كفيلة بأن نخسر شيئا من الجمال الذي كان ينتظرنا.. فقد ذهب الأطفال إلى بيوتهم وهم من كانوا ينتظروننا بآلاتهم الموسيقية وألحانهم الشجية، وأغانيهم البديعة.. خسرنا سماعهم، ولكننا سعدنا بالتجوال داخل المعهد، والسماع من القائمين عليه عن حكايته، والصعوبات التي يواجهونها، جراء المضايقات الإسرائيلية، والتهديد بإغلاق فرع القدس.

هذه الأرض أصغر من دم أبنائها الواقفين

على عتبات القيامة مثل القرابين

هل هذه الأرض حقا مباركة

أم معمّدة بدم
ودم
ودم لا تجففه الصلوات
ولا الرمل.

***

في العرس المقدسي الذي دعينا إليه، قبل أن نقفل عائدين إلى رام الله، مودعين القدس وأهلها، رقصنا طربًا وفرحًا، أمسكنا بيد العريس وبعض من أهله وعشيرته، ورقصنا الدبكة الشامية، ثم غنينا ما استطعنا من فنون عمانية وشامية.. وتآلفنا مع الشخوص المتدفقة على المكان.. وكان طعم الفرح ملازما لنا في طريق العودة، رغم الضنى والتعب.. وأنا أنظر من بعيد لصورة القدس التي بدت تتلاشى شيئا فشيئا.. وجدتني أعود إليها من جديد.. وهذه المرة، كما كنت أرتحل إليها قبل قدومي، حلما سرمديا، يأخذني للصلاة في القدس، وصوت الزعيم الخالد يهز كياني: «سنصلي سويًا في القدس الشريف.. شاء من شاء وأبى من أبى بعونه تعالى».

وتغني القدس:
يا أطفال بابل
يا مواليد السلاسل
ستعودون الى القدس قريبا
وقريبا تكبرون
وقريبا تحصدون القمح من ذاكرة الماضي
وقريبا يصبح الدمع سنابل
آه يا أطفال بابل.

للموت تذكرة سوانا

وعدنا إلى رام الله..

وهذه المرة ليست كسابقتها، فقد انتشيت بتحقيق الحلم الذي راودني طويلا، الحلم الذي جئت لأجله، وتكبدت العناء والمشاق للوصول إليه، وقد رأيته ماثلا أمام بصري، ومتحققا مثل فلق الصبح، كنت قد عدت من القدس كفاتح مزهو بانتصاره التاريخي، منتشيا بالحكايات الجميلة التي كتبها على أسوار القدس، وفي باحة الأقصى، وعلى كل حجر يرقد في زهرة المدائن، وكل ورقة زيتون نمت هناك..

ستبقى زيارة القدس، والصلاة في الأقصى الشريف من الذكريات الجميلة، التي أحملها من هذا المكان، دون أن أنسى باقي الذكريات، أو أصد عنها.

نظرت إلى برنامج الزيارة، وما تبقى فيه، بعد جولات وزيارات عدة، في مناطق وأراضٍ فلسطينية الكثير منها مازال يرزح تحت وطأة الاحتلال، وحواجز الأمن الإسرائيلي، وأقلها عاد لممارسة حياته الطبيعية، نافضا عن كاهله صور الخراب والدمار والقتل والتشريد، فالأسواق بدأت تنتعش، وتزخر بشتى البضائع والمنتجات، والشوارع تنبض بالحركة، وفي الجامعات هناك آلاف الطلبة الذين يتلقون دراساتهم العليا، أما المستشفيات والمراكز الطبية في المناطق الخاضعة للسلطة الوطنية الفلسطينية، فهي الأخرى قد

استعادت بعض حيويتها، وتطورت في منشآتها، وأدوارها.

لكن كل هذه الصور كانت محاصرة من كل الجهات بحواجز أمنية، ينتصب عليها الجنود الإسرائيليون بأسلحتهم، وهم يفتشون الداخل والخارج، ويسمحون لهذا بالعبور ويمنعون ذاك، دون أسباب واضحة.

فبالنسبة للضفة الغربية والبالغة نحو (5,760) كلم مربع، من أصل (27,000)كلم مربع هي مساحة فلسطين التاريخية، تم تقسيمها إلى ثلاثة أقسام، وفقا لما وردت في اتفاقية «أوسلو» الثانية الموقعة عام 1995م، لكل منها ترتيبات وسلطات أمنية وإدارية مختلفة، فهناك مناطق (أ)، وتضم كافة المراكز السكانية الرئيسية وتخضع لسيطرة فلسطينية أمنيا وإداريا كاملة وتبلغ مساحتها نحو (18%) من مساحة الضفة الغربية، ومناطق (ب)، وتشكل القرى والبلدات الملاصقة للمدن وتخضع لسيطرة مدنية فلسطينية وأمنية إسرائيلية (21%) من مساحة الضفة وهذا لا يعطي السلطة الحق بممارسة مهامها بالشكل الطبيعي في تلك المناطق، مما أدى إلى خلل في تكامل بناء السلطة وتقسيم المناطق إلى فئات وعزلها في «كانتونات» تغلق وتفتح حسب الحالة الأمنية أو المزاج الإسرائيلي، وتعتبر هذه المناطق خاضعة للشرطة الفلسطينية المدنية وقبل تحويلها إلى مناطق (ج) تحول إلى مناطق (ب+ أ) تكون خاضعة للشرطة المدنية مع وجود سلاح متفق عليه مسبقا.

أما مناطق (ج) وهي المناطق الوحيدة المتلاصقة وغير المتقطعة في الضفة الغربية، وتقع تحت السيطرة الإسرائيلية الكاملة أمنيا وإداريا فتشكل نحو (61%) من مساحة الضفة الغربية.

ويتم في هذه المناطق التعامل بقوانين إسرائيلية وفلسطينية مما أوجد

تناقضا بالقوانين، فحسب فرض النظام والقانون تكون أيضا السلطة في مناطق (ب) عاجزة عن تأدية مهامها وإسرائيل تتعامل في داخل هذه المناطق كأنها مناطق حدودية تهتم بالشكل الأمني ولأغراض إسرائيلية لمنع البناء أو التوسع وعددها (11) منطقة تحتوي على (194) تجمع ذات كثافة سكانية قليلة، وتقع هذه التجمعات داخل المناطق الخاضعة للسلطة الفلسطينية إما تكون على حدود ومشارف المنطقة (أ) أو على تخوم المنطقة (ب).

وكان من المفترض من هذا التوزيع، الذي يقيم الإدارة الفلسطينية على معظم المناطق المأهولة ويعطيها سيطرة محدودة على الموارد الطبيعية والأراضي الزراعية، أن يكون مؤقتا، لأنه وفقا لاتفاقية «أوسلو» الثانية، فان إعادة انتشار القوات العسكرية الإسرائيلية في مناطق (ج) ونقل مسؤولية الأمن الداخلي للشرطة الفلسطينية في مناطق (ب) و(ج) ستنفذ على ثلاث مراحل، على أن تتم كل مرحلة في فترة أقصاها ستة أشهر وتكتمل خلال (18) شهرا. خلال هذه الفترة، سيتم تحويل الصلاحيات والمسؤوليات المتعلقة بالأراضي تدريجيا إلى السلطة الفلسطينية لتشمل الضفة الغربية وقطاع غزة، باستثناء القضايا التي سيتم التفاوض عليها في مفاوضات الوضع النهائي (القدس، المستوطنات، الحدود، المياه، اللاجئين)، لكن إسرائيل لم تفِ بالتزاماتها، ولم يتم نقل إلا جزء صغير إلى سيطرة الفلسطينيين.

وقد جمدت هذه العملية برمتها بسبب تعنت الحكومات الإسرائيلية المتلاحقة، ومما زاد من تعقيدات الأمور اندلاع انتفاضة الأقصى نهاية عام 2000م، ولم تعد مطروحة نهائيًا بعد عملية «السور الواقي» التي اجتاحت فيها الدبابات الإسرائيلية كامل الضفة الغربية وألغت بوجودها العسكري

التصنيفات السابقة وأعادت الوضع لما كان عليه قبل «أوسلو» الأولى.

أسمع يا صديقتي ما يهتف الأعداء

أسمعهم من فجوة في خيمة السماء

يا ويل من تنفست رئاته الهواء

من رئة مسروقة

يا ويل من شرابه دماء

ومن بنى حديقة ... ترابها أشلاء

يا ويله من وردها المسموم.

***

تمضي الحافلة بنا، كما كل الصباحات التي تشرق على هذه الأرض، ثمة هدوء يعم المناطق التي نسكنها، كونها تندرج في مناطق (أ).. وحين كنت أتحدث عن هذه التقسيمات، كما أطلعت عليها، اخبرني مرافقنا هشام واصف: أن الفلسطينيين يتجنبون الحديث في هذه التقسيمات، كونها تخدم الهدف الإسرائيلي في ترحيل الفلسطينيين عن أراضيهم، واضطهادهم، وتغيير التركيبة السكانية لمناطق الضفة الغربية..

كان الحديث يأخذنا إلى الأساليب وقرارات الإبعاد والانتهاكات التي ارتكبتها سلطات الاحتلال، والتي تقوض «عملية السلام» على حد تعبير مرافقينا، كنت أتساءل عما إذا كان ثمة نتائج حقيقية من تواصل عملية السلام، وتقديم تنازلات للجانب الإسرائيلي، والتغاضي عن عدوان الاحتلال

على المناطق الفلسطينية، وأتساءل عن وضع باقي المناطق التي أحكمت إسرائيل سيطرتها عليها، وقسمتها وفقا لإرادتها إلى مناطق (ب) ومناطق (ج)، هذا في الضفة الغربية، ولا أعلم حال باقي المدن والبلدات التي أصبحت وفقا للأمر الواقع مدنا وبلدات إسرائيلية، يحرم على الفلسطينيين دخولها، أو الاقتراب منها، إلا إذا كانوا من العمال الذين يملكون تصاريح خاصة، تمكنهم من الذهاب إلى هذه المدن للعمل دون الإقامة فيها.

هنا يمكنك أن تسمع عشرات بل مئات القصص الأليمة عن وضع الفلسطينيين في مناطق العزل المقامة لهم، وعشرات مثلها تختبئ خلف سياج العدو، وفي سجونه ومعتقلاته، وفي الشتات، حيث ينتظر المبعدون بارقة أمل تعيدهم إلى ديارهم، التي لم يبق لهم منها غير مفاتيح رمزية، يحملونها حيثما ساروا.

لا يمكنك أن تقرأ عن فلسطين دون أن تشاهد جراحها، وتسمع أنينها، ومهما بدت الصورة «متعافية» أو تستعيد عافيتها، فإن الكثير من الأسر والعائلات الفلسطينية غير ذلك تماما.

عبر طريقنا اليومي، في مدن ومناطق الضفة الغربية، كنا نشاهد في الضواحي، والمناطق الجبلية البعيدة خياماً لاسر فلسطينية في أوضاع صعبة، يفتقدون لأبسط مقومات الحياة.. وهناك الكثير من الحكايات التي تحتاج إلى صفحات مطولة، لسرد جزء من هذه المعاناة.

فمن سرقة مياه الأحواض المائية الثلاثة التي تعتمد عليها الضفة الغربية، واستغلالها بشكل كامل للمستعمرات، بحيث لا يترك للجانب الفلسطيني إلا الفتات، تقوم إسرائيل بهدم آبار المياه بإخطار أو بدون إخطار، وهي تمنع بناء

السدود على الوديان الصغيرة التي تشق القرى الفلسطينية في الضفة الغربية، وتمنع كذلك حفر الآبار والهدف من ذلك تعطيش الأرض الفلسطينية وترك الفلاحين لها.

كنت أشاهد بعضا من هذه المعاناة، أو أقترب قليلا منها، لكني وجدتني لا أحيط إلا بالقليل منها، من هول الفاجعة.. أقول الفاجعة وأنا في مناطق تبدو عن قرب آمنة، وفي كنف السلطة الوطنية الفلسطينية، وتتأهب لجني ثمار اتفاقيات السلام.

صحيح أنني لم أشاهد توغل قوات الاحتلال في المناطق الخاضعة للسلطة الفلسطينية، لكن ما شاهدته بعدئذ في محيط جامعة القدس، نسف كل معاني السلام وبنوده، فإسرائيل ما زالت تعتبر الأراضي التي سلمتها للسلطة الوطنية الفلسطينية خاضعة لها، وتعيد التوغل فيها، واختطاف من تراه يهدد أمنها وسلامتها..

لقد كان الأمر صعبا، وأنت تمضي في دروب تراقبها أعين العدو، وترصد كل شاردة وواردة فيها، حتى يخيل لك أن صوتك مسموع لديهم وفكرك مرصود عندهم، وخطواتك متابعة قبل أن تضعها على الأرض.

كل ذلك، لم يفت من عزيمة الشعب وهمته، فكثير ممن التقيت بهم، كانوا يتحدثون بكل بأس وقوة عن اليوم الذي يندحر فيه الاحتلال خاسئا ذليلا، وهم لا يأبهون للموت في سبيل الوطن، وبعضهم يقاوم كل الضغوط والإغراءات لترك أرضه ومسكنه، ومع ذلك تسمع قولهم: «جذورنا مغروسة هنا، وسنموت على هذه الأرض».

سجل
أنا عربي
أنا اسم بلا لقب
صبور في بلاد كل ما فيها
يعيش بفورة الغضب
جذوري
قبل ميلاد الزمان رست
وقبل تفتح الحقب
وقبل السرو والزيتون
وقبل ترعرع العشب
أبي من أسرة المحراث لا من سادة نجب
وجدي كان فلاحا بلا حسب.. ولا نسب
يعلمني شموخ الشمس قبل قراءة الكتب
وبيتي كوخ ناطور من الأعواد والقصب
فهل ترضيك منزلتي؟.

***

كانت محطتنا التالية، من المحطات التي ستضرب بجذورها في الذاكرة، وترسخ لأمد بعيد، إن شئت، فهي تقارب زيارة القدس والصلاة في المسجد الأقصى، أو الصلاة في المسجد الإبراهيمي في مدينة الخليل، أقول ذلك،

وقد رأيت بعدئذ نهاية سعيدة للحكاية التي بدأت إبان هذه الزيارة.. حينها بكيت للمرة الثانية، وهذه المرة كان بكاء فرح وسرور.

لم أقل بعد عن البكاء الأول، ولم أسجل تفاصيل زيارتنا هذه، كل ما قمت به الآن هو سرد بعض من المشاعر التي انتابتني، والتي كبرت في اللحظة التي نزلت فيها من الحافلة، وقرأت على أحد الجدران: مخيم الدهيشة.

كان بضعة أطفال يلعبون في الطريق الواصل بين بيوت المخيم الواقع جنوب مدينة بيت لحم، على يسار الطريق الواصل بينها وبين مدينة الخليل، وقفت قريبا منهم، ثم نظرت في عيون طفلة صغيرة شعرت بالقرب منها، فاقتربت أكثر وتحاورت قليلا معها، قبل أن أجد نفسي بين الأطفال أقاسمهم الضحك والمرح.

صوت الرفاق يناديني، ثم في اللحظة التالية نجد أنفسنا، نطرق باب منزل صغير، لا يختلف عن المنازل المحيطة من حيث البساطة، والحالة التي عليها، نسمع صوتا من الداخل يدعونا للدخول، فيتقدم محافظ بيت لحم الذي رافقنا في هذه الزيارة، ثم ندخل نحن تباعا.

في المجلس الصغير الذي توزعت في جنباته الأرائك، وعلى جدرانه توزعت صور شاب في مقتبل العمر في هيئات مختلفة، ثم صورة رجل عجوز، وأخرى صورة عائلية، وبضع آيات قرآنية، ولوحات يبدو أنها شهادات تكريم، ثم امرأة عجوز تجلس في أول المكان، وهي ترحب بنا، وتكفكف الدمع، حال سلامنا عليها، قبل أن يعلو نشيجها بالدعاء لابنها المعتقل في السجون الإسرائيلية، بأن يفك الله أسره، وتلقاه قبل أن تختطفها يد المنون، وترحل عن الحياة، كما رحل والده من قبل.

«الحاجة أمونة» والدة الأسير عيسى عبد ربه، المعروف في المخيم بعميد الأسرى الفلسطينيين، عرفنا عليها محافظ بيت لحم، وهو يعرفها علينا بكلمات مقتضبة «الأخوة من سلطنة عمان الحبيبة»..

كنا نسلم عليها، ونقبل رأسها، وهي تأخذنا في حضنها، وكأني بها ترى في شخوصنا صورة ابنها الأسير، لم تكن تتركنا قبل أن نتركها، ونعيد عليها مواساتنا لها بالتجلد والصبر، وأن ثمة بارقة أمل في خروج عيسى مع الدفعة الثانية من الأسرى المزمع الإفراج عنهم الأسبوع القادم (الثلاثاء 29 أكتوبر 2013م)، ضمن اتفاق تم في نهاية يونيو 2013م بشأن أفراج إسرائيل عن عدد (104) من الأسرى الفلسطينيين الذين اعتقلوا قبل العام 1994م، على أن يتم ذلك على أربع دفعات.

أخبرتنا أم عيسى، أنها أحيت قبل أسبوع الذكرى الثلاثين لدخول ابنها السجن، كان عُمر عيسى حين تم اعتقاله من قبل جنود الاحتلال عشرين عاما، شاب في ريعان الشباب، لكن نزق الشباب وفورته كانا بعيدا عنه، كانت فلسطين هي شغله الشاغل، أحبها حتى النخاع، ود لو يروي حريتها بدمائه، ويفديها بروحه، ولذلك كان شجاعا وهو يجابه الاحتلال، ويتصدى له ببسالة، ويشارك في المقاومة من أجل تحرير الأرض ودحر العدوان، وإخراج الاحتلال..

يا أيّها الوجه البعيد

قتلوك في الوادي

وما قتلوك في قلبي

أريدك أن تعيد
تكوين تلقائّيتي
يا أيّها الوجه البعيد
ولتذكرينا
حين نبحث عنك تحت المجزرة
وليبق ساعدك المطلّ على هدير البحر
والدم في الحدائق
وعلى ولادتنا الجديد هز
قنطرة
ولتبق كل زنابق الكف الندية
في حديقتها
فإنّا قادمون
من يشتري للموت تذكرة سوانا
اليوم.. من؟.

***

لم يكن مشغولا بالحبيبة التي ستسكن قلبه، وتشاركه مشوار حياته، كانت فلسطين هي كل حياته وآماله، لذلك أخلص لها، وعشقها حتى النخاع، كان يعرف أن مهر حبيبته فلسطين غالٍ ونفيس، ولم يكن لديه أغلى من الروح والدم، ليقدمه لمحبوبته الأرض..

كانت أم عيسى، تحتضن صورته وهي تخبرنا عن حكاياته، وتروي من

ذكريات وليدها ما يسيل الدمع ويفطر الفؤاد، كانت ترى نفسها أما لكل أسير، ولذلك كانت تفرح كلما تنفس أسير هواء الحرية، وخرج من سجون الاحتلال، تشارك أمهات الأسرى الفرح، وفي قلبها يسكن حنين لعيسى، ورجاء أن يكون من المفرج عنهم في الدفعة التالية.

وهي تروي عن عيسى حكاياته، وترنو إلى لقياه، متمسكة بخيط الأمل الموصول بالله عز وجل، خاطبها محافظ بيت لحم عبد الفتاح حمايل قائلا: «سيخرج ابنك قريبا إن شاء الله، فابحثي له عن عروسة»، قبل أن ترد عليه فتاة من المخيم حضرت اللقاء: «وأنا ليش موجودة هنا».. كانت هذه الفتاة مثل كل فتيات فلسطين تحلم بالزواج من الأسرى المفرج عنهم، باعتبارهم أشرف الشباب وأكبرهم قدرًا بعد الشهداء.

يا حبي الباقي على لحمي هلالًا في إطار!

أترى إلى كل الجبال، وكل بيارات أهلي

كيف صارت كلّها.. صارت أسيرة؟

وأنا كبرتُ، كبرتُ يا حبي القديم مع الجدار

كبر الأسير، وأنت توقدُ

في ليالي التيه أُغنيةً ونار

وتموت، وحدك، دون دار.

***

كان لقاؤنا مع الحاجة أمونة أم عيسى، فاتحة خير، وبشارة سعد تحققت فيه دعواتنا التي انطلقت مع دعواتها أن يخرج عيسى من سجون الاحتلال، ويعود إليها، قلنا حينها لأم عيسى، إننا سنحتفل بخروجه من الأسر سويا، وكان لنا ذلك، إذ وبعد أيام معدودة، كان اسم عيسى ضمن قائمة الدفعة الثانية من الأسرى المفرج عنهم من سجون الاحتلال، القائمة التي أعلنتها سلطات الاحتلال قبيل ساعات من موعد الإفراج، بكل ما يصاحبها من عنجهية وتغطرس وإذلال للأسرى وأهاليهم.

كان موعد الإفراج وحسب الاتفاق المعلن هو الثلاثاء 29 أكتوبر 2013م، لكن إسرائيل تتعمد تأخير وقت الإفراج إلى ساعات متأخرة من الليل، ظنا منها أن أهالي الأسرى وفلسطين عموما، لن يسهروا حتى تلك الساعة ويمارسوا طقوس الاحتفاء والفرح، ولن يكون أمامهم متسع من الوقت للرقص والغناء والطواف بالأسرى في شوارع فلسطين وإشعال الليل بهجة وحبورا.

لكن ظن إسرائيل خاب هذه المرة، كما في مرات عديدة، إذ كان فضاء رام الله، وتحديدا المنطقة المحيطة بالمقاطعة المقر الرئاسي، يعج بالمحتفين من كل الأطياف والأعمار، وكانت الأعلام الفلسطينية واللافتات وصور الأسرى المفرج عنهم ترفرف في كل الجهات، كانت الساعة تشير إلى التاسعة مساءً، وكنا قد فرغنا قبل قليل من لقاء الرئيس الفلسطيني محمود عباس في مقره الرئاسي في مقاطعة رام الله، وزيارة ضريح الشهيد ياسر عرفات في ذات المكان، كان الوقت المتوقع لوصول الأسرى بعد منتصف الليل، وكان أمامنا وقت طويل حتى ذلك الحين، فاتفقنا على الذهاب إلى الفندق والراحة فيه، ثم العودة من جديد إلى ساحة الاحتفال.

في طريقنا إلى الفندق ومن ثم عودتنا منه إلى المقاطعة بعد منتصف الليل، كانت أضواء الفرح والأعلام وصور الأسرى تزين شوارع رام الله، وتجمل واجهات المباني والدور السكنية، ومن الإذاعة تنبعث الأهازيج والأغاني الوطنية الشعبية.. وكنا في الحافلة نرقص كما لم نرقص من قبل، ونطلق الأهازيج والزغاريد، وجدتني أعيش مع رفاق الرحلة كل مشاعر الفرح التي يعيشها الناس من حولي.

كانت فلسطين في تلك الليلة متوحدة، ومتوافقة على الفرح، وعلى واقع قدومه ذابت الخلافات والقطيعة بين من ينتمي لهذه الحركة أو ذلك الفصيل، كان الجميع يتحدث ببهجة وسعادة عن خروج الأسرى الفلسطينيين من سجون الاحتلال، وعن نجاح السياسة الفلسطينية في تكوين ضغط عالمي على إسرائيل، وإرغامها على الموافقة على إطلاق سراح بعض الأسرى في سجونها..

كان يمكن لبعضهم أن يقرأ المشهد بصورة مختلفة، ويعطي أبعادا مغايرة لإطلاق عدد قليل من الأسرى مقابل اعتقال عدد يتزايد كل مرة من الفلسطينيين وانضمامهم للعدد الأكبر من الأسرى الموجودين في سجون الاحتلال، وكان يمكن التساؤل عن رفض إسرائيل إطلاق سراح عدد من القيادات الفلسطينية، سيما تلك التي تصل مدد أحكامها لمئات السنين، كحال القيادي مروان البرغوثي وأحمد سعدات، و(14) معتقلا من الأراضي المحتلة عام 1948م، لأسباب تتعلق بما تسميه إسرائيل (السيادة الوطنية) لأنهم يخضعون لحكمها المباشر على (أراضي إسرائيل).

لكن فرحة خروج (26) أسيرا من بين (104) من الأسرى المعتقلين قبل

أوسلو، تم الاتفاق على إطلاق سراحهم على أربع مراحل خلال المفاوضات المباشرة والتي تم تحديد سقفها الزمني بـ(9) أشهر، جعلت الجميع ينسى هذا السؤال، إلى حين من الزمن، ويحتفي بخروج الأبطال..

كانت الساعة حينها قد جاوزت الثانية عشرة بعد منتصف الليل، وكانت الأعلام والصور واللافتات المبتهجة، وألوان العرس الفلسطيني تلون ساحة مقاطعة رام الله، على مرمى البصر من ضريح القائد الفلسطيني أبي عمار، وقبالة الشرفة التي يطل منها الرئيس محمود عباس، كنا نندس بين الجموع، عندما طلب منا موظفو مراسم الرئاسة الفلسطينية أن نتقدم إلى الأمام، لنكون بمحاذاة أهالي الأسرى، وقريبا من المكان الذي سيطل منه الرئيس أبو مازن ومعه الأسرى المفرج عنهم.

كانت الموسيقى الفلسطينية والأغاني الحماسية قد صدحت في المكان، وألهبت حماس الحضور، فانطلق الرقص والغناء على ألحانها، أمسكت صورة أحد الأسرى من الحضور، ورفعته عاليا، ثم انطلقت في مشاركة بعض الشبان الفلسطينيين وهم يؤدون الدبكة الشامية.. لم أكن أجيد رقص هذا الفن جيدا، لكنني انضممت إليهم، وفعلت مثلما يفعلون.. كانت أرجلي مثلهم تضرب الأرض طربا.. ثم وجدت نفسي وقد انعتقت وراحت تحلق طربا وحماسا.

انضم إلينا رفاق الرحلة، وشكلت تاليا حلقة واحدة، خرجت منها أنا وحمود الطوقي لنجرب استعراضنا في الرقصات، وصورة الأسير تتقافز في يدي، وترتفع هامته للسماء، انضمت إلينا أم أسير وقريب أسير، ودارت حلقة الدبكة على إيقاع أغنية فلسطينية.. كنت أرقص كدرويشي، وأضرب الأرض

بقدمي، ويدي ترفع صورة الأسير، وفؤادي يكاد يقفز من صدري ليشاركني الفرح.

كان الجميع منتشيا في تلك اللحظة، وكانت أغاني الفرح تعلو على رقصاتنا، دون أن أشعر بالزمن الذي مر عليّ في تلك الساعة.

رأيت الحاجة أمونة أم عيسى جالسة على كرسيها في جانب أقارب الأسرى المحررين، كانت صورتها هذه المرة مختلفة عن صورتها في اللقاء الأول، فقد بدت أكثر شبابا ونضارة، ووجهها يشع بالسرور والفرح، وكلماتها بدت متلعثمة، إذ لم تدر بأي قول تتحدث، فالسعادة التي تشعر بها، أكبر من استيعابها.

اقتربنا منها، وسلمنا عليها الواحد تلو الآخر، طبعت على رأسها قبلة، وباركت لها خروج عيسى ضمن الأسرى الذين رأوا شمس الحرية هذا اليوم، قالت لي: إن وجوهكم كانت قدم سعد علي، لقد استبشرت بكم، وبزيارتكم لي، ورأيتها ترفع كفيها للسماء وتدعو لنا..

كانت لحظات مزلزلة، من الصعب القبض على وصف يليق بها، فالجميع على قلب واحد، الجميع غدا أهلاً للأسير، وأباً وأخاً وابناً له، والنساء صرن جميعا أمهات وأخوات وبنات للأسير.

رأيت امرأة طاعنة في السن وهي تشارك الجمع الرقص والفرح، وترتدي ملابس العرس، أخبرتني الحاجة أمونة إن ابن هذه المرأة ما زال يقبع في سجون الاحتلال، وأنها هنا تحتفل بتحرير رفاق ابنها، وتشارك أمهاتهم فرحتهن، فكل الذين يخرجون من سجون الاحتلال هم أبناء لها، حتى لو تأخر خروج ابنها.

رأيتها تتمايل فرحا، وتتنقل بين حلقات الدبكة لتشارك الجميع عرس تحرير الأسير، ولذلك كنت قريبا منها أمسك بيدها، وأؤدي رقصة متواضعة، لم أدر كيف أديتها في تلك الدقائق، إذ رأيتني أبكي من أعماقي لحكايتها، ومأساتها التي كتبها الاحتلال، كحال الكثير من القصص والحكايات والمآسي التي تمتلئ بها جدران المنازل الفلسطينية، وتضج بها ألسنة النساء والرجال والشبان والولدان الذين خلفوا أسرى في سجون الاحتلال، لا يعرفون عن حالهم ومآلهم، ولا يدرون في أي أرض هم، وقضبان أي سجن تحد حريتهم.

من آخر السجن طارت كفّ أشعاري
تشد أيديكم ريحا... على نار
أنا هنا وراء السور أشجاري
تطوّع الجبل المغرور أشجاري
مذ جئت أدفع مهر الحرف ما ارتفعت
غير النجوم على أسلاك أسواري
أقول للمحكم الأصفاد حول يدي
هذي أساور أشعاري وإصراري
في حجم مجدكم نعلي وقيد يدي
في طول عمركم المجدول بالعار.

***

بعد ساعة أو تزيد قليلا، كنا والأسرى نرقص الدبكة ونغني من فنون فلسطين، كان المشهد الذي بدأ بظهور الرئيس الفلسطيني وهو محاط بالأسرى المحررين، يلوحون بالتحية للجماهير المحتشدة في استقبالهم، مؤثرا، رأيت أمهات الأسرى وأقاربهم يحاولون القفز من أماكنهم والطيران إلى أحبائهم، وكذلك كانت الصورة في المقابل، فقد رأيت الأسرى وهم يتفرسون الوجوه الماثلة أمامهم، بحثا عن وجوه يعرفونها، وعن ملامح لم تغب عنهم، لأحباء حملوا سماتهم في قلوبهم، وحفروا صورهم في صدورهم.

كانت الحاجة أمونة تبكي فرحا، وهي تنادي ولدها عيسى، وكان الأخير يقلب بصره بين النساء، بحثا عنها، حتى إذا تلاقت أعينهما، طار فؤاداهما وتعانقا قبل أن يتعانق الجسدان.

أنهى الرئيس الفلسطيني كلمته المقتضبة للشعب، وأذن للأسرى بالنزول للقاء أحبائهم، عندها رأيتهم جميعا يتقافزون على السلم الواصل إلى الساحة، ويرتمون في أقرب حضن يلقاهم، كانت دموع الفرح تهطل بين أحضان الأحبة، ورأيت عيسى وهو يمرغ رأسه في صدر أمه، ويبكي على السنين والأيام التي قضاها بعيدا عنها، وعلى العمر الذي راح منه وراء القضبان.

كان مصطفى القاسم، فرحا هو الآخر برؤية ابن عمه الذي خرج من السجن، ورأيته يشارك أقرباءه فرحتهم وعرس عودة الأسير.. أخذنا مصطفى ليعرفنا بابن عمه الأسير، كما عرفه بنا.. كانت مشاهد اللقاء باعثة على البكاء، البكاء على الذين ما زالوا خلف قضبان الاحتلال، وكيف حرمتهم إسرائيل من لحظات فرح كهذه..

تذكرت في تلك اللحظة زيارتنا إلى متحف الشهيد خليل الوزير أبي جهاد في جامعة القدس، هذا المتحف الذي خصص لكل ما يتعلق بالأسرى الفلسطينيين والوضع المرير الذي يعيشونه، وصور رحلة العذاب ابتداءً من زنازين السجن، ومرورا بكل ويلات زمن الاعتقال، وانتهاء برحلة الحرية، من خلال قصص وأحداث واكبت الأسرى.

والمتحف محاولة جادة للتعبير عن قوة الإرادة والتحدي للشعب الفلسطيني، وكيف تغلب على معاناة وقسوة الاحتلال، وقاوم الجحيم المحيط به، كان من ضمن ما رأيت في المتحف مطويات ورقية صغيرة بحجم الإصبع، وضع عليها الأسرى في سجون الاحتلال حكاياتهم ومعاناتهم داخل الزنازين، وكتبوا إبداعات نثرية وشعرية، ومارسوا الكتابة متشبثين بالحياة دون تسليم أو استسلام.

وفي اليوم التالي لخروج الأسرى الفلسطينيين، بدت شوارع رام الله أجمل وأبهى، رأيت الإشراق باديا على وجوه المارة، وفي المقاهي كان الجميع يحتفل بالمناسبة، أما بيوت الأسرى وحاراتهم ومناطقهم ومخيماتهم فقد فتحت أبوابها، وشرعت في استقبال المهنئين، وبسط موائد الضيافة لهم.

كان عرسا حقيقيا تعيشه كل البيوت، فيما الفتيات يتجملن بأبهى زينتهن، ويتأهبن للفرح الأكبر، وتحقيق أمنية الزواج من أسير، فذلك أكبر شرف لهن، ووسام فخر تتباهى به الفتاة بين قريناتها.

رأيت تاليا صورة للحاجة أمونة، وهي تجلس عيسى على حجرها، وتطعمه بيدها، وكأنه ما زال طفلا رضيعا، كانت تريد أن تعوضه عن سنوات السجن التي راحت من عمره، بالأمومة والحنان، وكان هو بين يديها كما شاءت،

يستقي من يديها العطف والحنان، ويضع رأسه على صدرها لينعم بالراحة والأمان، وينسى ولو إلى حين وجيز سنوات الذل والحرمان.

خذيني، إذا عدت يوما

وشاحا لهدبك

وغطّي عظامي بعشب

تعمّد من طهر كعبك

وشدّي وثاقي..

بخصلة شعر

بخيط يلوّح في ذيل ثوبك..

عساي أصير إلها

إلها أصير..

إذا ما لمست قرارة قلبك!

ضعيني، إذا ما رجعت

وقودا بتنور نارك..

وحبل غسيل على سطح دارك

لأني فقدت الوقوف

بدون صلاة نهارك.

أنا هنا..

وما عدا ذلك شائعة ونميمة!

لا يمكن أن تكون في رام الله، ولا تنزل في حضرة محمود درويش، وتُقرئه السلام، أو تطوف أرض فلسطين، وتنسى أن تمر عليه، وهو الساكن على ربوة قريبة منك، يناظرك بشطر، وشطر يُيمم جهة القدس، العاصمة الأبدية والتاريخية لفلسطين.

لذلك كان السؤال الأول عنه، منذ أن وطئنا ترابها المقدس، وكانت زيارته تتأخر يوما بعد آخر، حتى كادت روزنامة الأيام تنقضي، ويؤذن لنا بالرحيل، حينها، كان لا بد من إلغاء كل المواعيد، وتأجيل كل الزيارات، إلا محمود درويش، وكان لنا ذلك..

في الطريق إليه، كان السؤال الذي ينتابني، عما إذا كان درويش قد عرف الشخص الغريب، الذي مشى في جنازته، وما اسمه؟، وكنت أفكر ما إذا كان قد عرف ماذا وراء الموت؟ أو ماذا سنفعل قبل هذا الموت؟.

نظرت من نافذة السيارة، وأنا أتأهب للقائي الثاني بدرويش، هذا الذي صمت الكلام في حضرته، ولم ينبس ببنت شفة.. متأملا رام الله من رابية حديقة البروة، ناظرًا نحو العَلم الفلسطيني وهو يرفرف عاليا.. من هناك تتراءى غير بعيد ملامح مدينة القدس بمآذن أقصاها الشريف، وبمساجدها وكنائسها ودورها، وهي تسمع خطوات الشاعر القادم إليها، تتشبث بعزيمة

الصامدين فيها، وهي تؤكد، أنها ستكون كما كتبها في وثيقة الاستقلال، عاصمة لدولة فلسطين الحرة.

أسير في نومي. أحملق في منامي.

لا أرى أحدا ورائي. لا أرى أحدا أمامي

كل هذا الضوء لي...

أقف على درجات السلم الصاعد في الحديقة نحو مقام الضريح والمتحف، فأرى الأرض الفلسطينية تسمق بالشموخ، والطرقات تعطرت بدماء الشهداء، واشتعال الورد مع الزعتر البلدي، وافتتاح نشيد التراب، وكأني بدرويش يودع الأرض التي تمتصه الآن ملحا، وتنثره حشيشاً للحصان وللغزالة، كانت العصافير قد مدت مناقيرها، في اتجاه النشيد، وقلبه:

أنا الارض

والأرض أنتِ

خديجة! لا تغلقي الباب

لا تدخلي في الغياب

سنطردهم من اناء الزهور وحبل الغسيل

سنطردهم عن حجارة هذا الطريق الطويل

سنطردهم من هواء الجليل».

كانت رام الله تعيش على الفرح في ذلك اليوم، وتتأهب للقاء أبنائها الأسرى العائدين من سجون الإحتلال، وكأن درويش كان معهم، يحكي عن عودة الأسير:

والعائدون إليك منذ الفجر لم يصلوا

هناك حمامتان بعيدتان

ورحلة أخرى

وموت يشتهي الأسرى

وذاكرتي قويّة.

الصورة العامة للمكان، بدت من البعيد وكأنه كتلة بارزة في الفراغ، لكنه لم يكن كذلك، حين وصولنا إليه، فالحديقة مثل شجرة باسقة، مدت أفرعها لتصل إلى كل الجهات، وغرست جذورها، لتصل إلى كل الأمكنة، أينما يممت وجهتك، فثمة مدينة تنبض بالحلم الفلسطيني، من رام الله إلى الخليل، وحتى قرية البروة في الجليل مهد الشاعر، وحنينه الأبدي إليها، حيث عصافير الجليل مضت تبحث، خلف البحر، عن معنى جديد للحقيقة، وحيث اسم «البروة» يستقر في هذه الحديقة، ليكون ملازما لها، ورمزا لدفن الشاعر في الموطن الذي يحمل اسم ولادته.

هنا يتشكل المكان لوحة معمارية تمزج التراث بالحداثة، ويعكس جماليات الأرض الفلسطينية وخصوصيتها وتاريخها، ثمة أدراج حجرية تشق

طريقها بين السناسل الصخرية إلى المرافق المتنوعة للمتحف، مساحات مفتوحة تضم حديقة تتمازج فيها مفردات الريف الفلسطيني، ومسرحا مكشوفا يعلوه مدرج يتسع لنحو خمسمائة شخص ومنبرا حرا بجانبه يرمز إلى الحلم والحياة، ثم ساحة فسيحة تقود إلى ضريح درويش، الذي يتوسط دفتي كتاب المتحف (المسرح وقاعة المتحف).

تكوين هندسي بديع، صاغه باحتراف المصمم المعماري الفلسطيني جعفر طوقان، ابن شاعر فلسطين الكبير إبراهيم طوقان، وخط على ركن بارز قريبا من الضريح عبارة «من الوطن إلى محمود درويش».. مختصرا كل الدلالات التي تفسر حكاية (الوطن ومحمود درويش)، والألفة بينهما، فحين ينهض الوطن، ويحلق كما النسر، ينطلق صوت الشاعر مناجيا أياه:

وطني! يا أيها النسرُ الذي يغمد منقار اللهب

في عيوني،

أين تاريخ العرب؟

كل ما أملكه في حضرة الموت:

جبين وغضب.

وأنا أوصيت أن يزرع قلبي شجرة

وجبيني منزلاً للقُبَّرة.

وطني، إنا ولدنا وكبرنا بجراحك

وأكلنا شجر البلّوط...

كي نشهد ميلاد صباحك.

ولأن مفردة الوطن لازمة في قصائد درويش، ويتشكل حضورها بتنويعات عديدة، فإن أرضه تحقق أمنية الشاعر، في الاستقرار على تربته:

إلهي أعدني إلى وطني عندليب

على جنح غيمة

على ضوء نجمة

أعدني فلّة

ترف على صدري نبع وتلّة.

هنا يسكن الضريح تحت شاهدة صخرية عالية، وقد حفر عليها قول درويش: «أثر الفراشة لا يرىٰ، أثر الفراشة لا يزول».

ثمة أزهار فوضوية اللون كما وصفها درويش، في جداريته تحيط بالضريح:

متران من هذا التراب سيكفيان الآن...

لي متر و75 سنتمترا

والباقي لزهر فوضوي اللون..

يشربني على مهل.

في وصيته كتب محمود درويش، إنه يريد «أكاليل من الورد الأحمر والورد الأصفر، لا أريد اللون الوردي الرخيص، ولا أريد البنفسج لأنه يذيع رائحة الموت».

وعلى الضريح، نطالع مقطعا من قصيدة «يطير الحمام».. «ونم يا حبيبي عليك ضفائر شعري، عليك السلام»..

قريبا من هذا المكان، كانت ثمة فتاة عشرينية، تحكي للرفاق الصفحة الأخيرة من حياة درويش، وتروي عن رحلته الأخيرة إلى هيوستن، وعن تفاؤله، والضحكة التي أطلقها قبل أن يصعد الطائرة، «كان متفائلا بنجاح العملية الجراحية قبل إجرائها له في مستشفى بمدينة هيوستن في ولاية تكساس الأميركية، وكان يتصرف على أنها إجراء طبي عادي».. لكن قلب محمود درويش توقف عن النبض، دون أن يكتب جدراية أخرى، فقد صدقت النبوءة هذه المرة، وكان جناح حمامة بيضاء يحمله صوب طفولة أخرى.

لم أكن أرغب في سماع باقي الحكاية.. فقد عاد درويش محمولا على أدمع رفاق مسيرته، في الجنازة التي رسم معالمها في وصيته: «أريد جنازة حسنة التنظيم، يضعون فيها الجثمان السليم، لا المشوّه، في تابوت خشبي ملفوف بعلم واضح الألوان الأربعة، ولو كانت مقتبسة من بيت شعر لا تدل ألفاظه على معانيه، محمول على أكتاف أصدقائي، وأصدقائي ـ الأعداء».

في المتحف، حيث كنت أسير قريبا من الصور والكلمات، وبعض المقتنيات التي تؤرخ لحياة درويش، وترسم تفاصيل المكان، وسيرورة

الأشياء التي تعامل معها، وتتردد بين جدران المتحف الصغير، المكتظ بالتفاصيل، قصائد تجمعها مفردات الوطن، الأرض، القرية، الحب، الحريّة، الحُلم، الكفاح، الصمود، الواقعيّة، الأمل، الطموح، الحنين، الهويّة، السلام، الرمزيّة، كلها محمود درويش، وكلها صفات شكّلت شخصيّته كشاعر ومناضل وانسان، هنا نقرأ مقطعا من قصيدته الشهيرة «الجدارية» :

واسمي، إن أخطأت لفْظ اسمي

بخمسة أحْرفي أفقيّةِ التكوين لي:

ميم/ المتيْم والميتُم والمتمُم ما مضى

حاء/ الحديقة والحبيبة، حيرتانِ وحسرتان

ميم/ المغامِر والمعدُّ المسْتعدُّ لموته

الموعود منفيًا، مريض المشتهى

واو/ الوداع، الوردة الوسطى،

ولاء للولادة أينما وجدتْ، ووعْد الوالدين

دال/ الدليل، الدرب، دمعة

دارةٍ درستْ، ودوريٌّ يدلُّني ويدْميني/

وهذا الاسم لي

ولأصدقائي، أينما كانوا، ولي.

ويرتسم مقطع صغير من قصيدة «الآن في المنفى»، على ركن صغير:

قل للغياب:

نقصتنَي!

وأنا حضرتُ..

لأُكملَكْ.

تصميم المتحف من الداخل، يشي بمفردة الغياب، فالإضاءة الخافتة، والمقتنيات المحفوظة خلف الزجاج، والأوراق المتناثرة في إحدى المناضد وسط المتحف، وصور درويش في مراحل حياتية مختلفة، كلها توحي أن ثمة غيابا كتب هنا، سيما مع تردد صوت درويش وهو ينبعث بداخله، يدللنا عليه، أنه هنا وما عدا ذلك شائعة ونميمة!.

وكأنني قد متُّ قبل الآن...

أَعرفُ هذه الرؤيا، وأَعرفُ أَنني

أَمضي إلى ما لَسْتُ أَعرفُ. رُبَّما

ما زلتُ حيّاً في مكانٍ ما، وأَعرفُ

ما أُريدُ...

سأصيرُ يوماً ما أُريدُ.

ولوحة زجاجية تخبئ بعضا من تاريخ محمود درويش، وتستهل سيرته بالمقطع الأخير من قصيدته «أنا من هناك»..

أنا من هناك.

أعيد السماء إلى أمها حين تبكي السماء على أمها،

وأبكي لتعرفني غيمةٌ عائدةْ.

تعلّمتُ

كل كلام يليقُ بمحكمة الدم كي أكسر القاعدةْ

تعلّمتُ كل الكلام، وفككته كي أركب مفردةً واحدة

هي: الوطنُ...

وتتوالى «الجداريات» بين مقطع قصير، وآخر أطول، وفي المقابل يطل درويش بحضوره المميز، على شاشة عرض كبيرة، وهو يلقي بعضا من قصائده، وتتشكل حروف الأبجدية لتسكب جمالياتها على النصوص المتوالية على جدران المتحف.

وفي أحد أركان المكان يتربع مكتب محمود درويش الذي تنقّل معه من باريس إلى عمّان، قبل أن يستقر في مكانه هنا، وقريبا منه، تتوالى مقتنياته الكثيرة، التي صفت بانتظام هندسي، فنجان قهوته، والإبريق الذي كان يعدها فيه، ونظارته، وجوائزه وأوسمته كلها معلقة على جدار من طين قريته البروة، وبطاقة هويته الإسرائيلية وجواز سفره، وتذكرة سفره الأخيرة إلى هيوستن في29 يوليو م2008، وأعداد من مجلة الكرمل التي أسسها محمود

درويش في بيروت وظل رئيسًا لتحريرها ورفيق ترحالها حتى وفاته، قبل أن تخفت وتموت هي الأخرى في ربيع2009 م.

وتنتظم في إحدى الزوايا مجموعة من الصور لدرويش، توثق بعضا من حياته ونضاله، فهنا مع الشهيد الرمز ياسر عرفات، وهناك مع الأيقونة الثقافية لفلسطين فدوى طوقان، وثمة صور أخرى تجمعه مع إدوارد سعيد ومارسيل خليفة وزعماء فلسطينيين وعرب، وصور أخرى مع أمه التي حنّ إلى خبزها وقهوتها، ولمستها.

وفي ركن من المتحف تتناثر بعض المخطوطات كتبها درويش بخط يده، ومن بينها وثيقة الاستقلال التي أحكم الشاعر الراحل صياغتها بأجمل وأقوى الصياغات الأدبية، وقصاصات من صحف ومجلات تحوي نصوصا وقصائد وافتتاحيات لمحمود درويش، وبعض من القصائد والنصوص كتبها في أواخر حياته بخط جميل ومرتب، وبطريقة بديعة ومنمقة، ومن بينها قصيدة «المطر الناعم في مدينة بعيدة»، ومقاطع من قصيدة «طروادة» وقصيدة «على محطة قطار سقط عن الخريطة».. كتبها في 15 مايو2008 م، بمناسبة ستين عاما على نكبة فلسطين، أي قبل رحيله بثلاثة أشهر:

وقفتُ في الستين من جُرحي. وقفتُ على
المحطة، لا لأنتظرَ القطارَ ولا هتافَ العائدينَ
من الجنوب إلى السنابل، بل لأحفظَ ساحل
الزيتون والليمون في تاريخ خارطتي.

خارج قاعة المتحف، ثمة محل صغير لبيع الهدايا التذكارية، ودفتر لكتابة انطباعات الزوار وكلماتهم.. من هناك شاهدت رجلا غريبا مطأطئ الرأس، يتجه ناحية الضريح، ويضع إكليلا من الورد، قبل أن ينصرف.. لم أجد سبباً لأسأل: مَنْ هُو الشخصُ الغريبُ؟.

لماذا نحاول هذا السفر

كلما غادرنا رام الله إلى مدينة فلسطينية.. عدنا إليها مرة أخرى.

كانت رام الله وهي تعيش أنفاسنا، وتحتضن أحاديثنا حاضرةً في قلب الحكاية، وفي كل صباح نطل من نوافذ فندق جراند بارك على تلال ميسون، ونراقب شروق الشمس وضياءها المنعكس على المنازل والدور السكنية، والظلال المتكونة للأجسام على الأرض.

في مطعم الفندق، وعلى مائدة الإفطار كنا نناقش الوجهة التي سنشد الرحال إليها، وبرنامج الزيارة المعد وما تبقى منه، ونقرأ انطباعات الصحف الفلسطينية وتعليقها على زيارة الوفد العماني، ومتابعتها لأخبارنا وبرنامجنا حد أننا شعرنا بالزهو من أنفسنا، ومن الأصداء التي حققتها الزيارة.

كانت محطات الإذاعة والتلفزة وكذلك زملاء العمل الصحفي يتواصلون معنا بشكل دائم، لينقلوا انطباعاتنا عنهم، ويرصدوا آراءنا بعد كل ترحال إلى مدينة أو منطقة فلسطينية.. وكذلك كان حرص وتواصل ممثلي الرئاسة الفلسطينية، دون أن أنسى رفيقنا في السفر من مسقط وحتى رام الله أبا يزن هشام واصف الذي كان نعم الرفيق والصاحب.

وغير ذلك كانت الصحبة الجميلة للرفاق عوض باقوير وحاتم الطائي وعاصم الشيدي وسالم الجهوري وحمود الطوقي والوضاح المعولي وحمدان البادي ومصطفى القاسم وعبدالعزيز الجهضمي وأحمد كشوب وعزيزة راشد

والقفشات الجميلة والمساجلات النثرية التي كانت تصدر منا كل صباح.

كانت أيام الرحلة الجميلة تمضي سراعا، والساعات تأزف إيذانا بالرحيل.. فيما سماء رام الله وأريحا بدت في يوم رحيلنا غائمة وتبشر بمطر يغسل الأرض، ويعيد لها ألقها وبهاءها.

كانت مشاركتنا في استقبال الأسرى المفرج عنهم من سجون الاحتلال، خاتمة برنامج الرحلة، وآخر الحلم الجميل الذي عشناه في أرض البرتقال الحزين.

كنت أحزم حقيبتي، حين توالت إلى ذاكرتي صور فلسطين، وحكايتنا فيها، منذ لحظة وصولنا إلى معبر الكرامة، وحتى لحظة تأهب المغادرة والوداع، رأيتني في لحظة أقف قبالة الآلة العسكرية الصهيونية وهي تقذف الخوف والهلع، وتطلق الرصاص الحي بصورة عشوائية، وفي لحظة أخرى أرى الشباب الفلسطيني يقف حائلا دون تقدم جنود الاحتلال، ويقاومون بكل عزيمة وإصرار، سلاحهم الإيمان وحجارة صغيرة يرشقون العدو بها دون هوادة.

كانت قنينة زيت الزيتون الموضوعة على منضدة صغيرة بالقرب من السرير الذي ترقد فيه حقيبتي، تعكس صورتي وأنا متسلق شجرة الزيتون أشارك أهالي قرية ترمسعيا إلى الشمال الشرقي من مدينة رام الله، في موسم القطف، وأنظر جهة مستعمرة «شيلو» ومستعمرة «شفوت راحيل» المقام جزء منها على أراضي القرية، فيما مستعمرة «عادي عاد» تلتهم معظم الجبال الشرقية من ترمسعيا، والكثير من الأراضي المحيطة بهذه المستعمرات جرفت من أشجار الزيتون بفعل قوات الاحتلال وقطعان المستعمرين.

بجوار القنينة كان غصن زيتون، وحجارة من تربة الأقصى أخذتهما كتذكار لرحلة القدس.. وأنا أمسك غصن الزيتون تذكرت عبارة الرئيس الراحل أبي عمار وهو يخاطب العالم من منبر الأمم المتحدة: «ببندقية الثائر في يدي، وبغصن الزيتون في يدي الأخرى، فلا تسقطوا الغصن الأخضر من يدي، لا تسقطوا الغصن الأخضر من يدي».

كان الوقت يمر سريعا، والرفاق ينتظرونني في بهو الفندق، وأنا ما زلت أتأمل رام الله من الشرفة، وأتأمل حقيبتي التي تستعد للسفر والرحيل عن الأرض التي تآلفت معها، وتعطرت بزيتها وزيتونها.

أنهيت ترتيب الحقيبة، وحملت ما ضاق عليها في حقيبة اليد، ونزلت إلى الرفاق، أنهي إجراءات المغادرة، حيث كان ذلك آخر عهدي بفندق جراند بارك، ورام الله.

لماذا نحاول هذا السفر
وقد جرّدتني من البحر عيناكِ
واشتعل الرمل فينا...
لماذا نحاولُ؟
والكلمات التي لم نقلها
تشرِّدنا..
وكل البلاد مرايا
وكل المرايا حجر
لماذا نحاول هذا السفرْ؟.

***

كانت الشوارع قد بدأت تغتسل بالمطر، وكان نسيم أريحا يهب علينا بردا وسلاما، وفي جامعة الاستقلال (الأكاديمية الفلسطينية للعلوم الأمنية) وهي مؤسسة وطنية أمنية علمية أنشئت لأغراض إعداد العاملين في الأجهزة الأمنية الفلسطينية وتدريبهم وتأهيلهم، أنهينا آخر برنامج الزيارة.

كانت الحافلة تشق الطريق المؤدي إلى معبر الكرامة، عند الحدود الفلسطينية الأردنية، وكان الصمت الحزين عنوان وجوه الرفاق، وكأن السماء التي تسكب مطرها في تلك الساعة، تبكي على فراق الشخوص، أو تواسي الأرض الحزينة لرحيلهم عنها.

بدت أشجار الموز، والزيتون، والعنب، والنخيل، حزينة هي الأخرى، وكأنها تتشبث بنا: أن لا ترحلوا..

كنت أناجي صمتي وصمت الرفاق، وذاكرتي تقلب صور الرحلة، وتأتي على مشاهد ترسم على وجهي البسمة حينا، وتشد دمعة من الأحداق حينا آخر.

توالت علي في تلك اللحظة، صورتي في ربوع أريحا، أقدم المدن في التاريخ، وجدتني في مكتب الرئيس الراحل ياسر عرفات في أول مقرات السلطة الوطنية الفلسطينية في المدينة، وكوفيته معلقة على وتد قريب، وهنا سريره الذي كان يرتاح إليه، وتلك مكتبته، وهذه كتبه وبعض أوراقه، وذاك بيان إعلان الدولة الفلسطينية بخط محمود درويش.

ثم رأيتني معلقا بين السماء والأرض، أنظر لأريحا من قمة جبل، وأرسل بصري جهة تل السلطان، حيث عين نبع السلطان، وقصر هشام بن عبدالملك، ووادي القلط المتشكل من الجدران الصخرية المحيطة بهضاب الوادي..

يآآآآه .. أكان عليّ أن أتذكر كل ذلك في الرحيل، وأن تزورني هذه الصور وأنا ألفظ آخر أنفاسي على هذه الأرض، دون أن أدري ما إذا كنت سأزورها مرة أخرى، وأعيد ترتيب الحلم بما يتناسب ووجعي من هذا الصباح.

نقترب من استراحة أريحا، هنا تتواجد الشرطة الفلسطينية بصورة شكلية، وثمة من يجمع من المسافرين مبلغا ماليا طائلا كـ»ضريبة مغادرة»، يطلب منا أن نأخذ حقائبنا من الحافلة التي رافقتنا منذ بدء وصولنا وحتى اللحظة، ونحمل كل أمتعتنا منها، نكمل نحن مشوار السفر، وتعود الحافلة لتأخذ مسافرين آخرين، وتكتب معهم حكايات جديدة.

في حافلة ثانية، حملنا أمتعتنا، وواصلنا المسير، عبر طريق التفافي يبتعد عن مسار الطريق المؤدي إلى القدس وتل أبيب، فهذه الطرق لحملة الجواز الإسرائيلي فقط، كانت الحراسة حول المكان على أشدها، والكاميرات منصوبة في كل الاتجاهات، والكلاب البوليسية تمر على الحقائب والأمتعة المتكدسة أمامها، وجنود الاحتلال يتأهبون ببنادقهم لأي طارئ يهدد وجودهم.

عند بوابة العلمي حيث أول نقطة إسرائيلية تتمركز، نزلنا من الحافلة، ومررنا عبر بوابة حديدية للتفتيش يقف وراءها جنود إسرائيليون مدججون بالسلاح خلف زجاج ضد الرصاص، وبعد زمن ليس قصيرا، من الانتظار

والتفتيش الدقيق، انتقلنا مرة ثانية في حافلة أخرى، واصلت بنا مشوار العبور حتى الحدود الأردنية.

على حاجز الخروج من بوابة العلمي، كانت تقف مجندة إسرائيلية طلبت جوازات سفرنا وأوراقنا للتأكد من ختمها من قبل أمن العبور في البوابة، كانت تبدو «مهذبة» وتنقل صورة ايجابية، غير الصورة الماثلة في الأذهان، لكن ما شاهدناه.. وما اقتربنا منه، وما سمعناه، كان كافيا لوضع إطار أسود لصورة إسرائيل وإرهابها.

أعرف أننا من الضعف ما جعلنا نقبل على مضض وجود قوات محتلة على معبر الكرامة، ونسمح لهم تحصيل الضرائب والأموال الطائلة من المسافرين، ونوافق على قراراتهم في السماح لمن يريدون الدخول أو الخروج من الأراضي المحتلة، دون إبداء أي أسباب لذلك.

كانت القضية سياسية أكبر منا.. والخيوط فيها متشابكة، والمصالح تحكم مواقف الدول والحكومات مما يحدث في عموم فلسطين.. والخيانة شعار المرحلة عندما يتعلق الأمر بمصالح أنظمة، تدعي قولا حرصها على حقوق الشعب الفلسطيني، أما أفعالها فغير ذلك تماما.

في المعبر الأردني، أنهينا آخر حكايات السفر إلى فلسطين.. وفيما أخذتنا الحافلة جهة مطار الملكة علياء الدولي نظرتُ خلفي إلى صورة فلسطين وأنا أقرئها السلام.

***

رأيتك أمس في الميناء

مسافرة بلا أهل.. بلا زاد

ركضت إليك كالأيتام

اسأل حكمة الأجداد:

لماذا تسحب البيارة الخضراء؟

من سجن، إلى منفى، إلى ميناء

وتبقى رغم رحلتها

ورغم روائح الأملاح والأشواق

تبقى دائما خضراء؟.

***

تجري الطفلة في طرقات البلدة القديمة.. بين الأزقة والدكاكين العتيقة، تعبر دروب الحارات والأسواق، تخترق حشود المستعمرين وتتجاوز العساكر المدججين بالأسلحة والبنادق، تمر على بيوت المستوطنين، والمقدسيين، وعلى أعلام المحتل المتدلية من بعض العقود في سوق القطانين، تجري الطفلة في حواري القدس العتيقة, ومن قلب الحي الإسلامي تلج عبر باب المغاربة إلى باحة الأقصى.. وهناك تنظر لما هو آت.. وتبتسم.

* للقدس سلام*

الفهرس

كانت تسمى فلسطين.. صارت تسمى فلسطين..... 7

أحلام قُدَّت من حنين..... 15

على الجسر استجدي العبور..... 27

كيف تقهر هذه الأرض!..... 39

عن طين فخّارنا سندافع..... 51

تُنسى، كأنك لم تكن..... 79

يا صديقي!.. أرضنا ليست بعاقر..... 91

كل هذا الضوء لي..... 103

يا قدس، يا مدينة تفوح أنبياء..... 115

لا تتركونا وحيدين، لا تتركونا..... 127

باقون .. نحرس ظل التين والزيتون..... 137

صعود الفتى العربي إلى الحلم والقدس..... 147

للموت تذكرة سوانا..... 157

أنا هنا.. وما عدا ذلك شائعة ونميمة !..... 177

لماذا نحاول هذا السفر..... 189

للإطلاع على قائمة إصداراتنا :

بيت الغشام للنشر والترجمة

طبع بمطابع مؤسسة عمان للصحافة والنشر والإعلان

خلفان الزيدي

كاتب وإعلامي شارك في تغطية العديد من المناشط العالمية الخارجية والأحداث السياسية والمستجدات التي شهدتها بعض الدول العربية والأجنبية.

صدر له:(ذاكرة الحنين)2007م، (لحيب النهر) و(في حب عمان) 2008م، و(خطاوي الطير) 2013م.

للتواصل مع الكاتب:
khmz@hotmail.com

الطريق 60

هكذا فجأة، استيقظت لأجد نفسي أمشي في شوارع رام الله، وأجوب الخليل ونابلس وبيت لحم.. وفي صور أخرى أقف عند قبة الصخرة، وأصلي في بيت المقدس، وهنا في صورة ثالثة عند منبر صلاح الدين الأيوبي داخل الحرم الإبراهيمي، وأقطف الزيتون، وأعيش حصار أبوديس، وطلقات الرصاص، وتهجير شعب من وطنه، واستفزاز المستعمرين، وقطع الطريق، وأقف عند الحواجز، بغية الوصول إلى الجهة الأخرى من المدينة.

كل هذا الوجع، لا يساوي شيئا، أمام فرحة أم بخروج ابنها الأسير بعد ثلاثين عاما من الإذلال في زنازين الاحتلال، أمام رقصة فرح تشعر فيها أنك إنسان آخر، غير الذي تعرفه.. أطلق ساقي للريح، أحاول أن أهرب من واقعي، فاصطدم بمرارته في غدي الآتي.. فالأم التي فرحت بعودة ابنها الأسير، اكتشفت أنها وقريتها، تعيشان في الأسر، وتقبع في سجن بداخله سجن أكبر.

بيت الغشام
للنشر والترجمة
ISBN 978-99969-59-70-7
9 789996 959707